نقد المجتمع
في
مقامات بديع الزمان الهمذاني

اعداد الدكتور

زكريا حامد عبد الفتاح غازى

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

==========

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ؛؛؛

فإن أدب أي أمة هو مرآة لحياتها الاجتماعية والفكرية والوجدانية ، سواء أقصد الأديب أن يكون أدبه تصويراً لهذه الجوانب أم لم يقصد ، لأنه لا يملك أن يخرج عن نطاق عصره وبيئته ، ذلك أن أسلوبه في التفكير ، وتفاعله مع الأحداث ، واستجابته للمؤثرات ، وسلوكه الاجتماعي ، كلّ هذه أمور يحكمها المناخ الفكري الذي يعيش فيه ، والبيئة التي ينمو في ظلها ، والأعراف الاجتماعية التي تبسط سلطانها عليه .

والنص الأدبي - والتراثي منه على وجه الخصوص - في حاجة ماسة إلى قراءة متأنية ، تكشف أبعاده من جديد ، وتظهر ما فيه من حيوية وخصوبة ، متى أُحسنت النظرة ، وخلُصت النية .

ومن هنا كانت هذه المحاولة لقراءة جديدة لجنس أدبي ، ظلمه قراؤه ، ووقفوا به عند حدود الحلى اللفظية ، فنظرتهم الجزئية أصابته بالعقم والجمود ، في حين لو أنصفوه بقراءة متأنية لبثوا فيه روح الحياة ، ومنحوه التجدد والعطاء .

وهذه المحاولة لرصد "نقد المجتمع في مقامات بديع الزمان الهمذاني" محاولة شخصية ، هي الأولى من نوعها - على ما أعلم - قصرتها على دراسة مقامات البديع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من حيث محتواها الاجتماعي ، دون النظر ـ إلا عرضًا ـ إلى دراستها من الناحية اللغوية التي أولاها الباحثون اهتمامهم الأول ، وقصروا دراستهم عليها .

وتناولت في هذه الدراسة ـ قصدا ـ بعضًا من حياة البديع ، وجزءا من عصره ، ليكون القارئ على بينة من المجتمع الذي قصد كشف وتصوير ما يصطرع فيه من قضايا وأدواء اجتماعية .

ويسعى هذا البحث إلى تحليل محتوى المقامات تحليلاً اجتماعيًا ، ليؤكد أن المقامات قد خلقت في نفس المتلقي ـ بجانب المتعة الجمالية ـ يقظة ووعيًا قويا بالمجتمع وبقضاياه ، وهو ما يرنو إليه مبدعها .

ومن جانب آخر ، فقد طمحت هذه الدراسة أن تكشف عما تمتع به (البديع) من حس اجتماعي ناضج ، ورؤية نقدية بناءة ، تجلت في محاولته أن يمزق الغشاوة التي رانت على عقول وقلوب الضالين والمضلين ، وهذا يعكس مدى القلق الاجتماعي الذي كان يعاني منه .

ولذلك فقد حرصت على أن أنفُذ إلى جوهر النقد عند (البديع) الذي كونه من ملاحظاته ، ومشاهداته ، ووعيه الحضاري ، وخبرته بالسلوك الاجتماعي للفرد في علاقاته ، والمجتمع في تناقضاته ، فآتت أُكلها في صور تخاطب الوجدان ، وترنو إلى أن تحرك المشاعر الدفينة ، لتدفعها إلى تغيير هذا الواقع .

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه تعالى ، وأن يكون لبنة في صرح عملية الإحياء لتراثنا العظيم . . .

إنه ولي التوفيق ؛؛؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

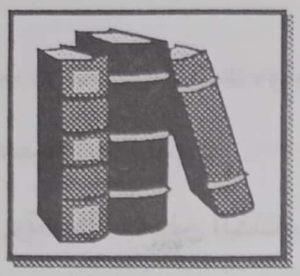

المبحث الأول
الهمذاني
وفن المقامات

==========

١) نشأته :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني[١] ، "الكاتب المترسل ، والشاعر المبدع ، حافظ عصره ، وذكي دهره ، وقدوة الحريري في إنشاء المقامات ، وقريع الخوارزمي في المبادهات والمكاتبات[٢]" .

ولد في همذان سنة (٣٥٨هـ) ، وإليها ينسب ، "وهي مدينة مشهورة من مدن الجبال ، ذات تاريخ قديم ، يقال عنها إن أهلها أعذب الناس كلامًا ، وأحسنهم خلقًا ، وألطفهم طبعا ، ومن خاصيتها ألا يكون الإنسان بها حزينًا ، ولو كان ذا مصيبة[٣]" .

ينتمي نسبه إلى قبيلة (تغلب) العربية ، فهو عربي الأصل ، من أسرة ذات علم وفضل ومكانة مرموقة ، استوطن أهله ديار العجم ، افتخر بنسبه في رسالته إلى الشيخ أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفرائيني ، فقال : "إني عبد الشيخ ، واسمي

---

(١) وفيات الأعيان : ابن خلكان ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م ج١ ص١٠٩ .

(٢) الآداب العربية في العصر العباسي الثاني . د. محمد عبد المنعم خفاجي . مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة . ص١٠٩ .

(٣) بديع الزمان الهمذاني (رائد القصة العربية والمقالة الصحفية) . د. مصطفى الشكعة . عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٣/١٩٨٣) ص١٥٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد[1]" ، وهو عاشق للعرب ، متعصب لهم .

ـ وتشكك بعض الكُتاب المحدثين في أصله العربي ، مدعين أن أصله فارسي ، وسرى شكهم ـ أيضًا ـ إلى اسمه واسم أبيه ، ظانين أنه من اختراعه ، ليوافق اسمه اسم شاعر العربية الكبير ، أبي الطيب المتنبي[2] ، وأكد آخرون أن البديع "عربي متعصب، يلبس ثوب العروبة من هامة رأسه إلى أخمص قدمه[3]" .

٢) رحلاته :

قضى البديع في همذان طفولته وصباه وفتوته ، وتلقى علومه على يد أساتذتها ، فتتلمذ لأحمد بن فارس ، ولازم حلقته ، كما تتلمذ لابن لال ، وابن تركان ، وعبد الرحمن الإمام ، وأبي بكر محمد بن الحسين الفراء[4] ، إلا إنه رحل عنها شأنه في ذلك شأن كثير من أعلام الفضل والأدب في القرن الرابع الهجري ، إذ غادروها وهم في مستهل أعمارهم ، ليطوفوا بالأمصار المجاورة تارة ، والأقطار النائية تارة أخرى[5] .

غادر البديع همذان إلى أصبهان سنة (٣٨٠هـ) ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وقصد الصاحب بن عباد وزير بني بويه ، فقربه إليه ، بعد أن أعجب بذكائه ،

---

(١) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني . مطبعة أمين هندية . الطبعة الرابعة (١٣٤٦/١٩٢٨) ص٤ .

(٢) انظر : بديع الزمان الهمذاني . مارون عبود . سلسلة نوابغ الفكر (٩) . دار المعارف القاهرة . الطبعة الرابعة ص١٦ .

(٣) بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص١٥٤ .

(٤) انظر معجم الأدباء . ياقوت . مراجعة وزارة المعارف العمومية . مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه . ج٢ ص١٦١ ، ١٦٢ .

(٥) انظر : بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص١٥٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجعل له مكانة في مجلسه ، وكان الصاحب زعيم أدباء عصره ، إذ كان كاتبًا شاعرًا ، وله من التآليف الشيء الكثير ، فتزود البديع من ثماره وحسن آثاره(١) .

ولم تطل إقامة بديع الزمان بحضرة الصاحب ، فتركه إلى جرجان ، وهي بلدة لها من العلم والفضل نصيب كبير ، فأقام في كنف أمرائها ، وسرعان ما هجرها لخلاف بينه وبين أبي سعيد الإسماعيلي(٢) .

ويمم وجهه شطر نيسابور سنة (٣٨٢هـ) ، بعد أن استهوى بريقها أنظاره ، فهي أحسن مدن خراسان ، وأجمعها للخيرات ، إذ كانت لها عجائب تسمى العجائب الإثنى عشرية(٣) ، فأقبل عليها ، ورغبته الشديدة في الاتصال بشيخ عصره ، أبي بكر الخوارزمي ، راغبا في علمه ، طامعا في كرمه .

ولم يحسن الخوارزمي لقاءه ، وحدثت بينهما جفوة ومقاطعة ، وأخذت أسباب العداوة بينهما تنمو ، وفتنة القطيعة تزداد ، فاستغلها بعض الناس ، وهيئوا لهما مناظرة ، انهزم فيها الخوارزمي ، ولمع اسم البديع بعدها ، وطار صيته في الآفاق ، واتصل بكثير من الأعيان ، وفتن به كثيرون ، والتف حوله تلامذة عديدون(٤) .

ورغم شهرة البديع في نيسابور ، وعلو ذكره فيها ، تركها متجها إلى سجستان ، في ضيافة أميرها خلف بن أحمد ، وكان أديبا ذائع الصيت ، فلقي منه بديع الزمان كل تكريم وإجلال ، فمدحه بشعر ، وأهدى إليه سنًا من مقاماته(٥) .

---

(١) انظر : يتيمة الدهر . الثعالبي . تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازي القاهرة ج٤ ص٢٥٦ .

(٢) السابق : ج٤ ص٢٤١ .

(٣) انظر : مجلة الرسالة المجلد الأول العدد (٨٠) السنة الثالثة ص٦٤ .

(٤) انظر : بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص١٧٢ ، ١٧٣ .

(٥) وهي المقامات : الناجمية ، الخلفية ، النيسابورية ، الملوكية ، السارية ، التميمية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم واصل البديع رحلته ، فاتجه إلى خراسان ، وغزنة ، وكرمان ، وغيرها من بلاد فارس ، مكتسبا بأدبه ، آخذا أعطيات الملوك والوزراء والأمراء والرؤساء ، حتى ألقى عصا التسيار ، واستقر في (هراة) ، فصاهر أحد أشرافها ، وهو أبو علي الحسين محمد ابن الخشنامي ، واقتنى الإقطاعيات والضياع ، وملك الأراضي والدور ، وتغير حاله إلى غنى بعد فقر ، وثروة بعد فاقة[١] .

٣) وفـــاته :

لا خلاف بين المؤرخين على أن البديع توفي بمدينة هراة سنة (٣٩٨هـ)[٢] ، وإنما الخلاف في سبب موته ، فذكر ابن خلكان رأيين في وفاته ، أحدهما أنه مات من السكتة ، إذ أصيب بغيبوبة ، فظن أنه مات ، وعجل بدفنه ، فأفاق في قبره ، وسمع صوته في الليل ، فنبش عنه فوجد ميتًا من هول القبر ، وقد أمسك لحيته بيده[٣] .

ورأيه الثاني إنه مات مسمومًا ، ورجح هذا الرأي أحد الكاتبين المعاصرين ، معللاً ذلك بكثرة أعدائه وحساده ، إذ لم يسلم من لسانه أحد[٤] . وإن كنت أرى أنه لا مانع من اجتماع السببين ، بأن دس له السم ، فأحدث له غيبوبة قبر بسببها ، وأيا كان السبب ، فقد "ودع الحياة أديب شاب خلد ذكره بآثاره الرائعة ، بعد أن أسدى إلى لغته وقومه تراثًا مجيدًا ، من درر الشعر ، وجواهر النثر[٥] .

---

(١) انظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري . د. زكي مبارك . طبعة دار الكتب المصرية ج٢ ص٣٢٥ .

(٢) وهذا خلاف لما أورده ابن حجة الحموي في خزانته بأن البديع فارق دنياه في سنة (٣٩٣هـ) .
انظر : خزانة الأدب . ابن حجة الحموي . المطبعة الخيرية بجمالية مصر الطبعة الأولى (١٣٠٤) ص٤ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان . ابن خلكان ج١ ص١١١ .

(٤) انظر : بديع الزمان الهمذاني . مارون عبود ص٢٥ .

(٥) بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص١٧٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤) صفاته وأخلاقه :

لم ينل كاتب في القرن الرابع ما ناله بديع الزمان ، فكان من أبرز كتاب العرب الذين أنتجتهم فارس ، عرف بذكائه وعبقريته ، وصفه الثعالبي بأنه "معجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد . . . ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرره ، . . . ولم ير ، ولم يرو أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره (١)" .

وهذه العبقرية والذكاء الوقاد ، الذي ظهرت مخايله عليه منذ نعومة أظفاره ، لا يمكن إلا أن تكون نتيجة لمزيج واختلاط وتزاوج بين آبائه وأجداده العرب وبين الفرس، لأن التزاوج بين جنس وجنس ، ينتج نسلاً ذكيًا ، صحيح العقل لبيب الفؤاد (٢) .

وقال عنه الحصري بعد أن ذكر اسمه البديع "هذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، كلامه غض المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفا ، والهوى يعشقه ظرفا (٣)" .

ومع بديهته الحاضرة ، وذكائه الواسع ، فإنه ـ رحمه الله ـ كان على خلق فاضل، ونفس عالية ، وصفه صاحب اليتيمة بأنه "مقبول الصورة ، خفيف الروح ،

---

(١) يتيمة الدهر . الثعالبي ج٤ ص٢٥٦ .

(٢) انظر : بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص١٥٥ .

(٣) زهر الأدب وثمر الألباب . الحصري القيراوني . شرح د. زكي مبارك الطبعة الرحمانية بمصر . الطبعة الثانية ج١ ص٣٠٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة[1]".

وكان كثير السفر والترحال ، فقد فارق بلده في مقتبل حياته إلى حضرة الصاحب ابن عباد ، ثم ترك الصاحب إلى جرجان ، وأقام بها مدة ، ثم قصد نيسابور ، ولم تطل إقامته فيها ، فتركها إلى خراسان ، وسجستان ، وغزنه ، وما حواليها .

وقد أبان لنا في مقاماته رحلاته الكثيرة ، فقد ذكر في المقامات البلدان الكثيرة التي رحل إليها ، ونسب إليها كثير من المقامات[2] ، وهذا يؤكد أن الهمذاني قد جعل المقامات تعبيرًا حقيقيًا عن حياته ، وحياة الأدباء في عصره .

ويعلل على كثرة رحلاته وأسفاره ، خوفه على نفسه ، وضنا بحياته ، لكثرة حاسديه الذين يدبرون له المكائد ، لعلو فضله ، وشهرة أمره في الأدب والفصاحة والبيان ، والشكوى من الخدم ، فيضطر للفرار والرحلة والتنقل ، وأثبت ذلك في مقامته (الخلفية) .

وتعرض لوشاة الواشين عند الأمراء ، وذوي الشان ، فتجاهله كثير منهم ، وشعر بتصغيرهم لشأنه ، وتغيرهم عما عهد فيهم ، ولذلك يقول في صحبة الملوك : "وإنهم ليعثرون على العثرة من خدمهم ، فيبنون لها منارًا ، ثم يوقدونها نارًا ، ويعتقدونها ثارا[3]".

أما عن أخلاقه ، فقد اتهمه بعض الباحثين بالبخل الشديد ، واستقصوا حكمهم هذا من رسائله ومقاماته ، ففي رسالته التي بعث بها إلى أستاذه أحمد بن فارس

---

(١) يتيمة الدهر . الثعالبي ج٤ ص٢٥٦ .

(٢) انظر المقامات : البلخية ، السجستانية ، الكوفية ، الجرجانية ، الأصفهانية . . . الخ .

(٣) يتيمة الدهر . الثعالبي . ج٤ ص٢٦٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوله : " . . . واثنان قلما يجتمعان ، الخراسانية والإنسانية ، وإني وإن لم أكن خراساني الطينة ، فإني خراساني المدينة ، والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ، والإنسان من حيث يثبت لا من حيث ينبت ، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همذان، ارتفع القلم ، وسقط التأليف(١)" .

وجاء أيضا في المقامة (الوصية) ، على لسان (أبي الفتح) يوصي ابنه وقد جهزه للتجارة : "فلا آمن عليك لصين ، أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم(٢) ، فإياك وإياهما ، إن الكرم أسرع في المال من السوس ، وإن القرم أشأم من البسوس ، ودعني من قولهم إن الله كريم ، إنها خدعة الصبي عن اللبن ، بلى إن الله لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره(٣)" .

فاتخذ بعض الباحثين من ظاهر ما ذكره في الرسالة والمقامة منطلقا لوصفه بالبخل الشديد ، فوصفه أحدهم بأنه : "لا يجود على محتاج ، ولا يبسط يده بالعطاء لأحد(٤)" .

وعلق آخر على الرسالة بقوله : "وكتابه لأستاذه ابن فارس ، أليس شهادة صارخة على الخراسانية(٥)" ، مؤيدًا رأيه بقول ابن عبد ربه : "أجمع الناس على بخل أهل مرو ، ثم أهل خراسان(٦)" .

---

(١) معجم الأدباء . ياقوت ج٢ ص٢٠٢ .

(٢) القرم : شدة الشهوة إلى أكل اللحوم .

(٣) المقامة الواحدة والأربعون .

(٤) المقامات الهمذانية (دراسة ونقدا) مقال بمجلة كلية اللغة العربية . الزقازيق د. فرج السيد راغب مندور . العدد العاشر ١٩٩٠ ص٤٧٨ .

(٥) بديع الزمان الهمذاني . مارون عبود ص٢٧ .

(٦) العقد الفريد . ابن عبد ربه . تحقيق محمد سعيد العريان . المكتبة التجارية (١٣٧٢/١٩٥٣) ج٧ ص١٦٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأرى أن رسالته لأستاذه ابن فارس ، لا تخرج عن فكاهاته التي عرف بها ، وما قصد من ورائها إلا المداعبة والملاطفة ، فلم يكن من الأغنياء وقتها ، خاصة إذا ما علمنا أنه قد وصل خراسان ، وهو رث الثياب ، خالي الوفاض ، بعد أن خرج عليه اللصوص ، فسلبوه كل ما معه ، وهو في طريقه إليها(١) .

ولا تؤخذ المقامة على ظاهرها ، فالبديع لا يوصي بالبخل كما يظن ، ولكنه يستثمر طاقة إمكانياته اللغوية في تفجير الشحنة الانفعالية التي تمور في وجدانه ، ويرسم من خلالها صورة نقدية ساخرة لتلك الفئة الاجتماعية . . . فالمقامة هنا رمز أو قناع ينقد الواقع ، وما فيه من مفارقات تكشف عن لب نقد البديع للسلوك الاجتماعي لهذه الشريحة من المجتمع الذين يسعون للثراء بأي صورة ، وبأية طريقة .

واتهم - أيضاً - بالكبر الذي بلغ حد التعجرف والغرور ، فقد كان يرى نفسه فوق كل أديب في عصره وقبل عصره ، وبالأنانية المفرطة ، التي جرت عليه كثيراً من القلاقل،فلم يكد يستقر في مكان إلا ويتركه إلى آخر(٢) .

والحقيقة أن البديع برئ من هذه التهم ، وما موقفه من الأمير خلف بن أحمد وهجره دياره ، إلا اعتداد بالنفس ، وصون للكرامة ، وحفظ لماء الوجه ، فحين أحس بجفاء الأمير ، وبإساءة خدامه ، تركه وعرض به في إحدى مقاماته .

فجاء في المقامة الخلفية(٣) معللاً هجرانه " إن الوحشة تقدح في الصدر ، اقتداح النار في الزند ، فإن أطفئت بادت وتلاشت ، وإن عاشت طارت وطاشت ،

---

(١) انظر : رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني . ص١٠٤ ، ١٠٨ ، زهر الآداب . الحصري ج٢ ص١٨٤ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي . د. شوقي ضيف . دار المعارف القاهرة الطبعة الخامسة ص٢٤٢ .

(٢) أنظر . المقامات الهمذانية .دراسة ونقدا . مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق .ص٤٧٩ ، بديع الزمان الهمذاني، مارون عبود . ص٢٨ .

(٣) نسبة إلى خلف بن أحمد .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقطر إذا تتابع على الإناء امتلأ وفاض ، والعتب إذا ترك فرخ وباض ، والحر لا يعلقه شرك كالعطاء ، ولايطرده سوط كالجفاء ، و على كل حال ، ننظر من عال ، على الكريم نظر إدلال ، وعلى اللئيم نظر إذلال ، فمن لقينا بأنف طويل ، لقيناه بخرطوم فيل ، ومن لحظنا بنظر شزر ، بـ ناه بثمن نزر ، وأنت لم تغرسني ليقلعني غلامك ، ولا اشتريتني لتبيعني خدامك ، والمرء من غلمانه كالكتاب من عنوانه ، فإن كان جفاؤهم شيئا أمرت به فما الذي أوجب ؟ و إن لم تكن علمت به كان أعجب[1]" .

هذا هو البديع المعتز بكرامته ، لا المهتم بتكبره ، الشديد الحساسية ، لا المفرط في الأنانية .

▫ مجتمع البديع :

عاش البديع في القرن الرابع الهجري ، ورغم أنه لم تدم حياته سوى أربعة عقود ، إلا إنه عاصر عدة دول ، قامت في الشرق ، بحركات انفصالية عن الدولة العباسية ، كالدولة السامانية ، التي قامت على أنقاض إمارة الصفاريين ، ودام سلطانها من (٢٦١ : ٣٨٩هـ) ، وكانت فيما وراء النهر ، وامتد سلطانها على خراسان ، وفي أيامها أحيا الفرس آدابهم ، وترجموا من العربية إلى الفارسية كل ما وقعت عليهم أيديهم .

وهناك الدولة الزيارية ، وقامت في طبرستان ، واستمر سلطانها من (٣١٦ : ٤٧٠هـ) ولتلك الدولة صلة وثيقة بالأدبين العربي والفارسي ، وليس أدل على ذلك من أن الكاتب البارع قابوس بن وشمكير كان أحد ملوكها .

وهناك ـ أيضاً ـ الدولة البويهية ، وقامت في فارس ، وامتد سلطانها إلى العراق ، ودام حكمها من (٣٢٠ : ٤٤٧هـ) ، وكان لها الأثر البالغ في تاريخ الأدب العربي ، فقد

---

(١) المقامة الثامنة والثلاثون .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولى الوزارة فيها أدباء من أشهر كتاب القرن الرابع الهجري ، مثل ابن العميد ، وابن عباد ، والمهلبي ، والصابي ، والخوارزمي ، وابوحيان التوحيدي ، وعاش في رحابها فترة من الزمن بديع الزمان الهمذاني (١) .

وما أريد أن أطيل الحديث عن هذا التفكك الذي أصاب الدولة الإسلامية ، ولا أقصد أن أعدد الدويلات والإمارات التي تناثرت على رقعتها ، فذلك شأن المؤرخ السياسي ، ولكن أود أن أوضح أن ما أصاب الدولة الإسلامية من تمزق في أوصالها ، كان أمارة ضعفها السياسي .

ولقد اتشحت الحياة الاجتماعية برداء الحياة السياسية الخلق ، ذلك أن أمراء الدويلات المتناثرة على رقعة الأرض الإسلامية ، راحوا يتنافسون في ابتداع ألوان من السرف ، ويفتنون في ابتكار ضروب من الترف .

وسار الخلفاء في بغداد على دربهم ، فقلدوهم ، وأدخلوا على بلاطهم ألوانا من الترف والنعيم ، وأقاموا القصور والحدائق ، وأنفقوا الكثير من الأموال على تزيينها وزخرفتها ، وأنشأوا في قصورهم البرك والنافورات ، واستنبتوا الأزهار والرياحين ، واستكثروا من الجواري والغلمان ، وافتنوا في اتخاذ الرياش والأثاث ، وتباهوا بما يصنعونه من ثياب موشاة بالحرير والذهب (٢) .

حتى ليقول أبوحيان التوحيدي : "وقد أحصينا ـ ونحن جماعة في الكرخ ـ أربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ،يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا

---

(١) انظر : الآداب العربية في العصر العباسي الثاني : د. خفاجي : ص٨،٧ ، بديع الزمان الهمزاني : د. مصطفى الشكعة : ص١٩ .

(٢) انظر : النموذج الإنساني في أدب المقامة : د. علي عبد المنعم عبد الحميد : الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) الطبعة الأولى (١٩٩٤) : ص٣٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظفر به ، أولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال ، وخلع العذار في هوى قد حالفة وأضناه[1]".

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الحياة الباذخة المترفة إلى الانحلال ، وأن تشيع ضروبا من الخلاعة ، وفنونا من المجون ، تستوي في ذلك قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، ومن لف لفيفهم ، وسعى سعيهم من التجار والأعيان . وسجل الثعالبي في يتيمته جانباً من هذه الحياة ، فذكر أن الوزير المهلبي ، كان له ندماء يجتمعون عنده في كل أسبوع ليلتين على إطراح الحشمة والوقار ، والتبسط في القصف والخلاعة[2] .

وطبيعي أيضًا أن تكون هذه الحياة الباذخة المترفة المنحلة ، باهظة التكاليف ، وأن هذه التكاليف الباهظة ، يجب أن يتحملها الشعب المقهور ، كي لا يفسد على سادته متعتهم أو يقعد بهم دون مسرتهم ، وينغّص عليهم عيشهم ، ويكدر عليهم صفو حياتهم .

فأدى ذلك إلى كثرة المجاعات . وانتشار السرقات ، وتفشي ألوان من الفسوق والفجور ، وشيوع الكدية والاستجداء ، وأصبح الإنسان العادي يعيش حياة قلقة ، فهو لا يجد ما يطعمه من جوع ، ولا ما يؤمنه من خوف ، مما أوجد ضروبا من التمزق النفسي ، وصنوفا من الصراع الباطني ، بين ما يعيشه من حياة مملوءة بالذل والهوان ، وما تبصره عيناه ، وتسمعه أذناه عن تلك الحياة الفاجرة اللاهية ، التي يحياها الأمراء والوزراء ، ومن سعى سعيهم .

---

(١) كتاب الإمتاع والمؤانسة : أبوحيان التوحيدي : تصحيح وضبط وشرح : أحمد أمين ، وأحمد الزين : مكتبة الحياة : بيروت ج٢ : ص١٨٣ .

(٢) انظر : يتيمة الدهر . الثعالبي ج٢ ص١٠٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكن الأدباء في حال خير من حال غيرهم ، فقد ظهر بجانب أولئك الذين تكسبوا وتمتعوا بلذائذ الحياة المادية بما قد أتيح لهم من اتصال بالأمراء والوزراء طائفة أخرى من الأدباء الفقراء ، تسولوا بأدبهم لقمة عيش تقيم أودهم ، وتحفظ عليهم حياتهم ، ويحتالون في سبيل ذلك احتيالاً بالغا . عرفت هذه الطائفة بأهل الكدية أو الساسانيين (١) .

ورغم التردي السياسي ، والانحلال الاجتماعي ، فإن الحياة الفنية كانت تسير بخطى حثيثة في اتجاه عكسي ، فبقدر ما كانت الهوة التي هوى فيها الوضع السياسي وانحدر إليها الوضع الاجتماعي عميقة سحيقة ، بقدر ما كانت القمة التي ارتفع إليها الوضع الثقافي عالية سامقة .

وكان للنثر النصيب الأوفر من هذا الازدهار الثقافي ، فوثب وثبة واسعة موفقة في شكله ومضمونة ، ذلك أنه لغة العقل ، والعقل تفكير نظري ، لا يعوقه قيود الأعراف والتقاليد ، فهو ماض إلى الأمام ، سريع الاستجابة لتطور الأسباب والعصر (٢) .

(١) انظر : النموذج الإنساني في أدب المقامة : د. على عبد المنعم عبد الحميد : ص٣٢ : ٣٥ . وبنو ساسان : الشحاذون وأهل المسألة ، ساسان رجل فقير حاذق في الاستعطاء ، دقيق الحيلة في الاستجداد ، نسب إليه المكدون ، وللشيخ محمد عبده رأي في ذلك . انظر ـ مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ـ شرح الشيخ محمد عبده ـ المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ـ الطبعة الثانية ـ هامش (٢) ـ ص٩٧ .

(٢) انظر : النموذج الإنساني في أدب المقامة : د. علي عبد المنعم عبد الحميد : ص٣٦ : ٣٧ .

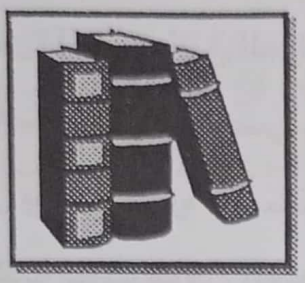

المبحث الثاني
القصة المئة لمقامات الهمذاني

يعد بديع الزمان الهمذاني أول من أطلق لفظ مقامة على هذا الفن ، فجاء في المقامة الوعظية : "قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض الحاضرين : من هذا ؟ قال غريب ، قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبئ بعلامته فصبرت (١)".

وإذا كان الهمذاني هو أول من أضفى عليها هذا الاسم ، فإنه "أيضًا" هو "أول من فتح باب عمل المقامات (٢)" ، فهو أبو عذرة هذا الفن في الأدب العربي ، وصاحب الفضل في إنشائه (٣) ، وقد اعترف الحريري بأن الهمذاني بمقاماته كان "سباق غايات ، وصاحب آيات" ، وأن المنتديات في عصره كان يتردد على ألسنتها دائما "ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى (٤)".

وذهب الحصري في كاتبه (زهر الآداب) ، أثناء حديثه عن بديع الزمان ومقاماته إلى غير ذلك ، فقال : "وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، كلامه

---

(١) المقامة السادسة والعشرون .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القلقشندي . نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ج١٤ ص١١٠ .

(٣) الإسلام والحضارة الإنسانية . د. محمد عبد المنعم خفاجي . بيروت (١٣٩٣/١٩٧٣) ص٣٥١ .

(٤) شرح مقامات الحريري . الشريشي . مطبعة عبد الحميد حنفي القاهرة . الطبعة الأولى (١٣٧٢/١٩٥٢) ج١ ص١٥، ١٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفا، والهوى يعشقه ظرفا، ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أغرب بأربعين حديثا، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، ... عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا، وتقطر حسنا(١)".

ولقد أوحى هذا النص لعدد من الكتاب والباحثين بالقول بأن بديع الزمان، ليس بالمبتدع للمقامة بإطارها المعروفة به، وإنما هو استوحاها واستلهمها من أحاديث ابن دريد.

فيعلق الدكتور/ زكي مبارك على نص الحصري بقوله: "مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وأنه حاكى ابن دريد في أحاديثه، وقد استغللت هذا النص في كتابي الذي وضعته بالفرنسية عن النثر في القرن الرابع، وقد دهش (المسيو مارسيه) لهذه الفكرة، وعجب كيف اتفق الناس إلى اليوم، على أن البديع هو منشئ فن المقامات، ولكن من جانب آخر أذكر أني لم أر مثل هذا الكلام في غير زهر الآداب(٢).

ويقول الأستاذ/ محمود مصطفى: "وقد ذكروا أن أول من عرفت له مقامات، هو أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي، المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، وقد ذكر في مقدمتها أنه صاغها أربعين مقامة استنبطها من ينابيع صدره، واستخرجها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر(٣)".

---

(١) زهر الآداب. الحصري ج١ ص٣٠٧.

(٢) زهر الآداب. الحصري القيرواني. ج١ هامش ص٣٠٨، ٣٠٩.

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي. محمود مصطفى. الطبعة الثانية (١٣٥٦/١٩٣٧)، ص٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال بمثل هذا الأستاذ/ أحمد حسن الزيات ، فذكر أن البديع قد "حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد ، المتوفى سنة (٣١٠هـ) ، وقد كتب أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها(١)".

وإلى مثل ذلك ذهب الدكتور/ شوقي ضيف . فذكر أن البديع قد أنشأ "مقاماته معارضة لأحاديث ابن دريد ، ولاشك في أن الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنعتين، وهي تلاحظ في جوانب كثيرة ، ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن المقامة (الأسدية) عند البديع ، تعد صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأمالي ، وكذلك الشأن في المقامة (الحمدانية) ، وما جاء بها من صفة الفرس ، فإنها تكميل وتتميم لما جاء في الأمالي من وصفه(٢)".

وأرى ريادة الهمذاني لهذا الفن ، لأن "الإنسان إذا عارض شيئا فإنه يحاول أن يحاكيه ليأتي بمثله ، أو بأحسن منه إن استطاع ، ولابد أن يوجد أساس تبنى عليه المعارضة أو المحاكاة ، وحين نقارن مقامات الهمذاني بأحاديث ابن دريد ، لا نجد تشابها بين الموضوعات ، أو حتى في طريقة العرض(٣)".

وكيف يتأتى تأثر الهمذاني بابن دريد في وصف الأسد والفرس . كما ذهب إلى ذلك الدكتور/ شوقي ضيف . وشكل التناول مختلف ، وطريقة المعالجة مختلفة ، والهدف كذلك يختلف كثيرًا(٤) ... والذي يطلع على العملين يجد الفرق الشاسع

---

(١) تاريخ الأدب العربي . أحمد حسن الزيات . مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الرابعة عشر ص٢٤٣ .

(٢) المقامة : د. شوقي ضيف . فنون الأدب العربي (١) . دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية ١٩٦٤ ص١٧، ١٨.

(٣) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن . الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٤) ص١٠ .

(٤) وردت بعض أحاديث ابن دريد مفرقة في كتاب الأمالي للقالي . انظر : الأمالي للقالي . درا الكتب العلمية بيروت ج١ ص (١٦، ١٥٢، ١٩٤، ٢١٤، ٢٩٨) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينهما في منهج الوصف ، والمضمون الفكري ، والنسق التعبيري ، فكل ما وصف به الهمذاني الأسد في مقاماته لا يزيد على قوله : "... قد طلع من غابة ، منتفخا في إهابه ، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد ملئ صلفا ، وأنف قد حشى أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطب ملم ، وحادث مهم(١)".

أما وصف الأسد عند أبي بكر بن دريد ، فقد جاء في مجلس يزيد بن معاوية ، على ألسنة ثلاثة هم : أبو زيد الطائي ، الذي وصفه بقوله : "لونه ورد ، وزئيره رعد ، ووثبه شد ، وأخذه جد ، وهوله شديد ، وشره عتيد ، ونابه حديد ، وأنفه أخثم ، وخده أدرم ، ومشفره أولم ، وكفاه عُراضتان ، ووجنتاه ناتئتان ، وعيناه وقادتان ، كأنهما لح بارق ، أو نحم طارق ، إذا استقبلته قلت أفدع . وإذا استعرضته قلت أكدع . وإذا استدبرته قلت أصمع ، بصير إذا استغضى ، هموس إذا مشى ، إذا قفىّ كمش ، وإذا جرى طمش ، براثنه شثنة ، ومفاصله مترصة ، مصعق لقلب الجبان ، مروع لماضي الجنان ، إن قاسم ظلم ، وإن كابر دهم ، وإن نال غشم(٢)".

ووصفه جميل بن معمر بقوله : "وجهه فدغم ، وشدقه شدقم ، ولعزه مُعْرنزم ، مقدمه كثيف ، ومؤخره لطيف ، ووثبه خفيف ، وأخذه عنيف ، عبل الذراع ، شديد النخاع ، مرد للسباع ، مصعق الزئير ، شديد المرير ، أهرت الشدقين ، مترس الحصيرين ، يركب الأهوال ، ويهتصر الأبطال ، ويمنع الأشبال ، ما إن يزال جاثما في خيس ، أو رابضا على فريس ، أو ذا ولغ ونهيس(٣)".

---

(١) المقامة السادسة . وانظر : أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن ص١١٤ .

(٢) ذيل الأمالي (كتاب النوادر) القالي . ج٣ ص١٨٠ .

(٣) ذيل الأمالي (كتاب النوادر) القالي ج٣ ص١٨١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ووصفه الأخطل التغلبي بأنه : "ضيغم ضرغام ، غشمشم همهام ، على الأهوال مقدام ، وللأقران هضام ، رئبال عنبس ، جرئ دلهمس ، ذو صدر مفردس ، ظلوم أهوس، ليث كروّس (١)".

فما أورده ابن دريد في وصف الأسد على ألسنة هؤلاء الثلاثة ، كان أوفى وأشمل مما أورده بديع الزمان في المقامة الأسدية .

وإذا كان الهمذاني وابن دريد قد وصفا الأسد ، الأول في مقاماته ، والثاني في أحاديثه ، فهل يمنع ذلك أن يكون غيرهما قد فعل ذلك في شكل آخر ، وموضوع آخر ، وأن يكون قد سبقهما إلى ذلك آخرون ؟ !

يضاف إلى ذلك وجود "اختلاف بين أحاديث ابن دريد ، ومقامات الهمذاني ، هذا الاختلاف يتجلى في أن أحاديث ابن دريد وإن كانت مروية ، إلا أنه ليس لها بطل ، ومقامات الهمذاني لها راوية وبطل ، . . . وكان هدف ابن دريد لغويا بحتا ، ولكن هدف الهمذاني كان إصلاح المجتمع عن طريق عرض مشكلات مختلف الطبقات ، وبأسلوب وإن كان مزينا بالسجع والمحسنات البديعية ، إلا أنه كان مسليا للغاية ، ولم يظهر فيه أن اللغة كانت الهدف الأول والأخير ، كما كان يفعل ابن دريد (٢)".

وهكذا تتسع هوة الاختلاف بين أحاديث ابن دريد ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، مما لا يمكن معه إيجاد أي نوع من أنواع المقارنة بينهما .

---

(١) السابق : ص١٨١ .

(٢) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن ص١١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهناك من يقول بأن أبا الحسن أحمد بن فارس ، هو مبتدع فن المقامات ، مستندًا في ذلك على تلمذة الهمذاني على ابن فارس [1] ، وجعل من التلمذة سببا كافيا لأن يكون لابن فارس دون بديع الزمان ، حق ابتداع فن المقامات .

ولو اعترفنا بصحة أمثال هذا الدليل ، لأعطينا حق ابتداع المقامات لبقية الأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم بديع الزمان في همذان ، والري ، ونيسابور ، بالإضافة إلى أن مقامات ابن فارس ـ الذي قال بها ـ لم تصل إلينا ، حتى نستطيع أن نقيس بها مقامات البديع ، ونعرف إلى أي حد استفاد منها في نهجه ، أو عبارته .

وغير بعيد عن هذا ما ذهب إليه أحد النقاد بقوله : "والتأريخ للمقامات يقتضينا الرجوع إلى ما قبل الهمذاني والحريري ، فإن ابن دريد صاحب المقصورة ، قد حاول معالجة هذا اللون من الكتابة ، أو النثر الأدبي ، ثم حاول هذه المحاولة أيضًا ابن فارس صاحب كتاب المجمل في اللغة ، إلا أن هذه المحاولة من هذين الرجلين قد باءت بالفشل ، ولم يتناقل الناس شيئا مما كتباه في ذلك .

ولعل شهرتهما في اللغة قد غطت على ما عداها ، أو أن طبعهما اللغوي لم يساعدهما على الانسياب والاسترسال في الكتابة القصصية ، بالشكل الذي يجعل الكتابة سائغة مقبولة ، والرجل الأول في كتابة المقامات بأسلوبها المعروف هو الهمذاني ، وهو من غير شك نادرة عصره ، وفريد دهره ، وحامل لواء هذا اللون من الكتابة [2] " .

---

(١) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية . جورجي زيدان . دار الهلال القاهرة . الطبعة الثانية ج٢ ص٣٥٧ .

(٢) في محيط النقد الأدبي . د. إبراهيم على أبو الخشب . الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٥) ص١٨٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومعنى ذلك أن ما قام به ابن دريد ، وابن فارس . إن كانت لهما إسهامات في ذلك . ما هي إلا محاولات لكتابة نثر أدبي ، فيه معالجة لموضوعات شيقة ، لكنها باءت بالفشل ، وهذا يؤكد ريادة بديع الزمان الهمذاني لهذا الفن .

وعلى وجه العموم . فإن التأثر أمر إنساني عادي ، يتأثر المتأخر بالمتقدم ، ولا عيب ، ولكن التأثر شيء ، والابتداع شيء آخر ، والتأثر موجود في الأدب العربي ، وفي معظم الآداب ، إلا أنه ينبغي ألا يكون دليلا نحكم به على الهمذاني في فنه الذي ابتكره، وننتزع منه الريادة لفن المقامات .

وتعرضنا ، بل واسترسالنا لهذه القضية ، ليس من فضول القول ، بل كان أمرا مقصودا ، إذ أن هذا البحث يحاول إثبات أن المقامات تصور مجتمع بديع الزمان ، وما فيه من تناقضات ، فهي صورة لحياة معاصريه ، بما فيه من فقر وغنى ، وتسول وكدية ، وسطو ونهب ، وتحايل ونفاق ، . . . وغير ذلك . . . فكان ابتداعه لهذا الفن الأدبي الجديد .

وقد تحقق هدف البديع من ابتداع لون جديد ، وأسلوب مبتكر ، صب فيه قضايا مجتمعه ، إذ كان النثر الفني قبله مقصورا على الكتب الديوانية ، والرسائل الأدبية والإخوانية ، إلى أن جاءت المقامات ، فوضعت أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي .

وهذا اللون من النثر لم يعرفه العرب إلا بعد اتصالهم بالحياة الاجتماعية للفرس، ومخالطتهم لهم ، وسماعهم شيئا من أقاصيصهم وأحاديثهم ، وكان بديع الزمان من الكتاب الذين يجيدون اللغة الفارسية ، حتى قيل أنه كانت تلقى عليه القصيدة بالفارسية ، فيترجمها في الحال إلى العربية شعرًا ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد أوحت المقامات لبعض الأدباء بأعمال باهرة ، فالمقامة (الإبليسية)[1] ، تدور أحداثها حول لقاء عيسى بن هشام (راوي) مقامات البديع لإبليس في وادٍ من وديان الجن ، إذ ضلت منه إبل فخرج في طلبها ، ومازال يطلبها ، حتى دخل في وادٍ به "أنهار مطردة ، وأشجار باسقة ، وأثمار يانعة ، وأزهار منورة ، وأنماط مبسوطة ، وإذا شيخٌ جالس[2]".

وبعد أن تبادلا السلام ، أمره الشيخ بالجلوس ، فامتثل عيسى بن هشام ، وسأله الشيخ هل تروي من أشعار العرب شيئا ؟ فقال : نعم ، وأنشده لامرئ القيس ، ولبيد ، وطرفة ، فلم يطرب لشيء من ذلك ، وعرض عليه أن ينشده من شعره ، فأنشد :

بان الخليطُ ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

فتعجب عيسى ، وقال : "يا شيخ ، هذه القصيدة لجرير ، قد حفظتها الصبيان ، وعرفها النسوان ، وولجت الأخبية ، ووردت الأندية[3]".

وبعد حوار بينهما قال له الشيخ : "كنت أكتمك حديثي ، وأعيش معك في رخاء ، لكنك أبيت ، فخذ الآن : فما أحد من الشعراء إلا ومعه معن منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرة[4]".

ولاشك في أن هذه المقامة الطريفة ، هي التي أوحت لابن شهيد في الأندلس ، أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطبيعة ، وهي الرحلة المعروفة باسم (التوابع

---

(١) المقامة الرابعة والثلاثون .

(٢) المقامة الخامسة والثلاثون . مطردة : جارية ، منورة : ظهر فيها النور ، وهو الزهر الأبيض . أنماط : جمع نمط وهو ضرب من البسط .

(٣) المقامة الرابعة والثلاثون .

(٤) المقامة السابقة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والزوابع) ، فالصلة بين العملين واضحة ، فهما يدوران حول لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا في وادي الجن ، ثم تبعهما أبو العلاء المعري ، فاستوحى من ابن شهيد رحلته إلى العالم الآخر ، في عمله الخالد (رسالة الغفران) .

وكان لمقامات الهمذاني تأثير قوي في كتاب المقامات من بعده ، حتى إننا لنجد روح مقامات الهمذاني واضحة في المقامات التي أنشئت من بعده ، يقول الحريري في مقدمة مقاماته عن البديع - رحمه الله - ، إنه سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته(١)" .

ويقول ابن خلكان في معرض ترجمته للبديع ، إنه "صحاب الرسائل الرائقة ، والمقامات الفائقة ، وعلى منواله نسج الحريري مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى أثره ، واعترف في خطبته بفضله ، وأنه الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج(٢)" .

ويقول ابن حجة الحموي عن البديع : "وهذا الإمام المتقدم ، الذي صلى الحريري خلفه . . . فإن البديع هو الذي سبق الحريري إلى نظم المقامات ، وسبك العلوم في تلك القوالب الغريبة ، وعلى منواله نسج الحريري ، واستعمل بعض أسماء مقاماته ، وقفى أثر عيسى بن هشام ، بالحارث بن همام ، وعارض طرح الإسكندري بما نسجه أبو زيد السروجي(٣)" .

ولم تكن ريادة البديع لفن المقامات ، وتأثيره فيمن بعده ، مقصورا على الشكل والمضمون ، بل يعد هو المؤلف العربي الوحيد الذي اخترع شخصية شائقة واضحة من

---

(١) مقامات الحريري (المقدمة) ص١٩، ٢٠.

(٢) وفيات الأعيان . ابن خلكان ج١ ص١٠٩ .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب . ابن حجة الحموي ص١٣٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صنع الخيال المجرد ، وهي شخصية أبي الفتح الإسكندري[١] ، وقد تأثر به كتاب المقامات الذين أتوا بعده في اختيار شخصياتهم .

وتعد مقامات البديع ، هي أولى الأعمال الأدبية العربية ، التي أثرت في آداب اللغات الأخرى ، فانتقل فن المقامات إلى اللغة الفارسية في القرن السادس الهجري ، أي بعد بديع الزمان بقرنين كاملين ، وأول من أدخلها في الأدب الفارسي ، هو القاضي حميد الدين البلخي ، الذي كان أكثر تأثرًا بفن بديع الزمان الهمذاني ، فترجم المقامة (المضرية) لبديع الزمان ، وأسماها المقامة (السكباجية) ، كما نقل عنه مقامات أخرى[٢] ، وإلى مثل هذا أشار (بروكلمان) في دائرة المعارف الإسلامية[٣] .

وكما أثرت المقامة العربية في الأدب الفارسي ، كان لها تأثير في الأدب الأوروبي، ففي قصص الشطار في الأدب الإسباني أثر للمقامات في جوانبها الفنية ، وعناصرها ذات الطابع الواقعي . والواقعية في القصة الأوروبية مدينة للمقامات بنزعتها الفنية ، وقصص العادات والتقاليد في أوربا في معناها الحديث ، تأثرت بهذه النزعة أيضًا ، وهي التي نشأ عنها القصة الاجتماعية ، أو ذات الطابع الاجتماعي فيما بعد[٤]" .

وكان تأثر القصة في الأدب الإسباني بالمقامات واضحا ، وبخاصة بعض القصص التي تعالج أحداثها حياة المشردين ، والصعاليك ، ولعل من الطريف ، أن لهذه

---

(١) انظر : مقال فخري أبو السعود . القصة القصيرة في مصر . مجلة الرسالة . العدد (١٩٨) لسنة (١٩٣٧) ص١٨ .

(٢) انظر : بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص٣١٢، ٣١٣ .

(٣) انظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري . د. زكي مبارك ج١ ص٢٠٣ .

(٤) دراسات في الأدب المقارن ـــ د. محمد عبد المنعم خفاجي ـــ دار الطباعة المحمدية ـــ القاهرة ـــ الطبعة الأولى ـــ ج١ ـــ ص٣٤ : ٣٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القصص عندهم بطلا يسمى (بيكارون) ، وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان(١) .

وعن أثر المقامة في القصة ، تكاد تجمع تعريفات المقامة عند الباحثين المعاصرين ، على أنها حكاية قصيرة ، أو قصة قصيرة ، أو نموذج للقصة ، أو أعمال قصصية ، قصد بها سرد الحكاية ، فقد عرفت بأنها "حكايات قصيرة موضوعة على لسان رجل خيالي ، تنتهي بعبرة ، أو موعظة ، أو نكتة . .(٢) ، ووصفها بهذا أيضا الأستاذان ، أحمد أمين(٣) ، وأحمد حسن الزيات(٤) .

وقال الدكتور/ شوقي ضيف إنها "نوع من القصص القصيرة ، تخيل فيها شخصاً من المكدين ، أو المتسولين ، يطوف من مكان إلى مكان ، يستجدى الناس بفصاحته(٥)" ، متفقاً في هذا الوصف مع الدكتور زكي مبارك(٦) .

فهذه الأقوال "المتفقة معنى في تعريف المقامة ، التي لا تكاد تختلف لفظا ، تبين لنا أن هؤلاء الباحثين المعاصرين ، يتفقون على رأي واحد ، هو أن المقامة بها من خصائص القصة الشيء الكثير(٧)" .

ومن هنا فقد أطلق على بديع الزمان الهمذاني "رائد القصة العربية" ، وذلك لأن "محاولة البديع في مقاماته أول محاولة عرفت في العربية لكتابة القصة(٨)" .

---

(١) انظر : المقامة . د. شوقي ضيف ص١١ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية . جورجي زيدان ج٢ ص٣١٩ .

(٣) ظهر الإسلام ـــ أحمد أمين ـــ مطبعة خلف ـــ القاهرة ـــ (١٣٧٧ـــ ١٩٥٨) ـــ ج١ ـــ ص١٤٢ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ـــ أحمد حسن الزيات ـــ ص٣٩٨ .

(٥) الفن ومذاهبه في النثر العربي ـــ د. شوقي ضيف ـــ دار المعارف ـــ القاهرة ـــ الطبعة الخامسة ـــ ص٦ .

(٦) النثر الفني في القرن الرابع الهجري ـــ د. زكي مبارك ـــ ج١ ـــ ص١٩٧ ، ١٩٨ .

(٧) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن ص٢٤، ٢٥.

(٨) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية . د. مصطفى الشكعة ص٣٩٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولو تتبعنا القصة ، أو الجوانب القصصية في مقامات الهمذاني ، لوجدنا أن معظم المقامات تعد قصصا ، أمثال المقامات الأسدية ، والغيلانية ، والأصفهانية ، والبغدادية ، والنجارية ، والموصلية ، والمضيرية ، والحرزية ، والأسودية ، والحمدانية ، والشيرازية ، والحلوانية ، والإبليسية ، والأرمنية ، والناجمية ، والخلفية ، والصميرية ، والخمرية ، والبشرية .

بهذا قد أنشأ بديع الزمان القصة العربية القصيرة ، لأول مرة في تاريخ الأدب العربي ، فقد كانت مقاماته الشرارة التي انبعثت منها فكرة إنشاء القصة ، ولقد ترسمها بعد ذلك الأدباء الذين ساروا على دربها ، حتى انتهت إلى ما نراه اليوم من قصص وروايات .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

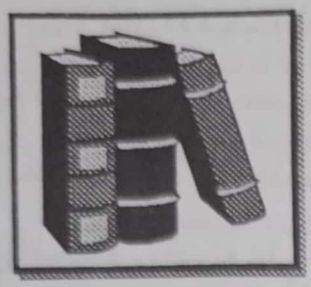

المبحث الثالث
نقد المجتمع عند بديع الزمان الهمذاني

المقامات فن أدبي حي ، لأنه يمثل لنا الحياة في فترة من الفترات ، سجل البديع من خلالها بعض المعالم الأدبية والاجتماعية ، وأن ثقافة واضعها قد ألهمته الكثير من العناية بالنقد الاجتماعي ، وشيء غير قليل بالنقد الأدبي .

وليس هذا الأمر بدعا ، فإن ثقافة الأديب وحساسيته للواقع ، وطبيعة علاقته بهذا الواقع ، وموقفه من أمته ، والرسالة الفنية التي يرنو إلى تصويرها ، وموقعه الاجتماعي ، ومدى تعبيره عن مجتمعه ، كل هذا يجعل من نتاج الأديب مرآة تنعكس عليها احوال المجتمع في جميع عناصره .

والمتأمل إلى المدلول الشامل للنقد عند البديع ، يجد أنه لا يقف عند حدود مدلول النقد الأدبي ، الذي يتخذ من النص الأدبي محورًا أو ركيزة لعمله وتحليله كما هو شائع ومعروف ، بل يمتد ليستوعب الواقع الاجتماعي ، بكل ما يكتنفه من ظلمات ، بهدف تسليط أضواء تهتك الحجب الكثيفة ، وتسطع بنورها كاشفة لما يعتور ذلك الواقع من تخلف يتطلب تغييره (١) .

والنقد من هذا المنظور ، يشف عن مدى الوعي بوظيفة النقد الاجتماعية ، إذ يرنو الناقد من خلاله للمجتمع ومشكلاته .

---

(١) انظر : نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام . د. أحمد الهواري . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية . القاهرة (١٩٩٣) ص٢٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كان الأديب بمثابة جهاز استقبال وإرسال في هذا المضطرب الواسع ، فإن بديع الزمان كان في عصره من أدق وأبرع هذه الأجهزة المستقبلة والمرسلة ، بما رزقه من لطافة حس ، وقوة انفعال ، وبراعة في التصوير ، والتحدث عن مواجعه وسخطه على المجتمع ، وقدرته على رسم المواقف ، والسخرية المرة .

والأدباء يختلفون في ذلك تبعا لاختلافهم حساسية ، وتباينهم إرسالا واستقبالا ، فمنهم من يرسل تلميحا بالأدواء والمثالب ، وتلويحا بالمفاسد والمعايب ، ومنهم من يرسل الأدواء الاجتماعية من واقع النفس ، حينما يفر من واقع حياته ليأس أو خوف ، فيلوذ بالنفس ، وينشد فيها السعادة لبني جنسه في صورة نفسه .

وبديع الزمان من الصنف الأول ، فقد اندمج وسط الحياة الاجتماعية ، فانطبعت في نفسه مثالية ، فعبر عنها في صورة مثيرة وجذابة ، وضرب أوتار النفوس الغافية ، علها تنهض من غفوتها ، وتتخلص من قيدها ، وقل أن يوجد أديب عبر عن أدواء المجتمع بمثل ما عبر به بديع الزمان في مقاماته .

والشخصية التي تظهر في معظم المقامات ، والتي هي مسئولة عن المواقف الإنسانية والدينية والأخلاقية ، والتوافق التركيبي للمواقف والأحداث ، هذه الشخصية ، لا تمثل بديع الزمان الكائن الاجتماعي في عمومه ، ولكنها تعبر عن جانب في شخصه ، هو الجانب المتصل بالمقامات ، أي الجانب الذي يتجلى في النص (١) .

واختار بديع الزمان الهمذاني شخصية أبي الفتح الإسكندري ، وهي شخصية مكتدية ليكون حجر أساس في تجسيد شيء من طبيعة مجتمع المكدين ، هذا الاختيار قد منح المؤلف فرصة لإظهار بعض الأفكار والمواقف المرتبطة بمجتمعه .

---

(١) انظر : السرد في مقامات الهمذاني . أيمن بكر . الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٨) ص١٥٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومقامات البديع لا تجمعها وحدة موضوع ، ولكنها ترتبط فيما بينها عبر شخصية (البطل) أبي الفتح الإسكندري المتلونة والمحبوبة ، التي يتعرف عليها (الراوي) عيسى بن هشام ، ويداهمه متلبساً بالمكر والتضليل ، فيفضحه ويلومه .

ودعوة البديع لإصلاح المجتمع ، تجرى ضمن هذا الإطار لا خارجه ، وكذا دعوته إلى تهذيب الأخلاق ، وبث روح المساعدة والعطف على الفقراء ، بعد انقسام الأفراد إلى فئات اجتماعية متنافرة المصالح والأغراض ، وهذا يعني أن الواقع الاجتماعي فاسد لفساد طبيعة الإنسان ، كما يعبر عن ذلك سلوك أبي الفتح الإسكندري ، وأن إصلاح المجتمع يستلزم التنبيه إلى المفاسد ، والحث على تجنبها ، وعلى اتباع الفضيلة في القول والعمل ، وهذا هو الدور الذي يلعبه عيسى بن هشام ، الذي يتعقب سلوك أبي الفتح اللاأخلاقي ، ويفضحه ، ويدعوه إلى تجنبه .

وقد تستهوي عيسى بن هشام شخصية أبي الفتح الإسكندري ، فيستعير وسائله ، ويستعين بحيله ، ويقوم بدور البطل في بعض المقامات (١) ، ولعل الهمذاني قصد بذلك إلى مغزى أخلاقي ،هو أن المرء على دين خليله ، وأن من صاحب الأشرار عرف أحوالهم ، وخبر حياتهم ، وتطلعت نفسه إلى مجاراتهم ، والتشبه بهم ، والانغماس فيما يرتكبون من المنكرات ، وما يفعلون من المعاصي والآثام (٢) .

ونجاح البديع في اختيار شخصية أبي الفتح الإسكندري ، بصورتها المتلونة ، وسلوكها المتدني ، بالمقاييس الاجتماعية الرفيعة في ذلك الزمان ، وفي الوقت الحاضر أيضاً ، يعد تعبيراً عن صدق رغبته في إثارة مشاعر المقت عند الناس ، إزاء ذلك السلوك ، في استثارة هممهم ، للترفع عن الانزلاق إلى منحدره .

---

(١) انظر المقامات : الغيلانية ، المغربية ، البغدادية ، والهندية ، الحلوانية .

(٢) انظر ـــ المقامات الهمذانية ، (دراسة ونقد) ـــ مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ـــ ص ٥٠١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحتى لا نرسم صوره تامة لعصر البديع ومجتمعه ، فإن الجوانب السلبية التي جسدها البديع في سلوك أبي الفتح الإسكندري ، ليست مقصورة على ذلك المجتمع وحده في زمانه ، وحتى في زماننا هذا ، وكذلك فإن سلوك الإسكندري ، لا ينطبق على سلوك جميع المواطنين ، كما أن مجتمع البديع لا ينفرد وحده بتلك الجوانب السلبية دون سائر المجتمعات التي عاصرته ، والتي جاءت بعده .

فالنقد الاجتماعي ، هو المهمة التي انتدب البديع نفسه للذود عنها ، ضد عيوب الفرد والمجتمع ، ورسم من خلالها الرؤى المستقبلية للمجتمع الذي يحلم به . . وهذه الرؤى لا يتم الوصول إليها إلا من خلال رؤية فاحصة للواقع الاجتماعي ، رؤية تهدف إلى تغيير شامل وعميق ، لعدد من الجوانب السلبية ، أهمها :

▫ الرياء في الدين :

وقف بديع الزمان من رجال الدين موقف الناقد ، لأنه كان يعتبرهم المثل الأعلى للأمة ، فإذا فسدوا انهارت المثل العليا ، وتهدم بناء الناس الروحي ، وكان حريصا على أن يجعل رجال الدين منزهين عن الأخطاء التي يقع فيها سائر البشر .

لذلك حمل على بعض "رجال الدين الذين يظهرون الورع والتقوى ، ويتظاهرون بالنسك والعبادة ، ويتكسبون بالدين ، ولا يلتزمون بتعاليمه ، ولا يعملون بشرعه ووصاياه ، فهم في المسجد تقاة بررة ، وفي خارجه شياطين فجرة[1]" .

ففي المقامة (الخمرية) ، كانت حيلة البطل عجيبة ، إذا اصطنع لباس التقوى ، وتزيا بزي الدين ، فظهر في صورة إمام يؤم الناس في الصلاة ، يطيل في خفضه ورفعه ، ويتظاهر بالتقوى والورع .

---

(١) المقامات الهمذانية (دراسة ونقدا) . مجلة كلية اللغة العربية . الزقازيق ص ٥٢٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفع السلام في صلاة الصبح مرة ، فوجد خلفه أصحابه إخوان الخلوة ، سكارى عائدين من حان الخمارة ، وقد لبوا الدعوة إلى الصلاة ، فنظر إليهم بعد أن "تربع في ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطراقه ، ويديم استنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ، من خَلَط في سيرته ، وابتلي بقاذورته ، فليسعه دِيمَاسُه ، دون أن تنجسنا أنفاسه ، إني لأجد منذ اليوم ، ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريع الطاغوت ، ثم ابتكر إلى هذه البيوت ، التي أذن الله أن ترفع ، وبادر هؤلاء أن يقطع ، وأشار إلينا ، فتألَّبت الجماعة علينا ، حتى مزقت الأردية ، ودميت الأقفية، وحتى أقسمنا لهم لا عدنا[1]" .

وشاربو الخمر هم (عيسى) وجماعته ، وقد استجابوا لتهديد وعقاب جماعة المصلين "أقسمنا لهم لا عدنا" ، غير أنه قسم غير واضح الدلالة ، هل يقسمون على عدم العودة لشرب الخمر ، أم على عدم العودة للصلاة وهم سكارى ، غالبا قصدت جماعة عيسى المعنى الثاني ، إذ بمجرد أن رفعت رايات الحانات اتجهوا إلى أكبرها[2] .

ووصلوا إلى حانة الخمر في المساء ،فسمعوا صوت مغن ، أعجبهم صوته ، فسألوا فتاتها عن المطرب في ناديها ، فقالت : إن "شيخا ظريف الطبع ، ظريف المجون ، مرّبي يوم الأحد في دَيْر المريد ، فسارني حتى سرني ، فوقعت الخلطة ، وتكررت الغبطة ، وذكر لي من وفور عرضه ، وشرف قومه في أرضه ، ما عطف به ودي ، وخطى

---

(١) المقامة التاسعة والأربعون .

خلط سيرته : أتى بمنكر الأعمال وشنيعها ، مع كونه يؤدي بعض أعمال الصلاح والتقوى . الديماس : المنزل والبيت . صريع الطاغوت : المغلوب بوسوسة الشيطان . تألبت : اجتمعت .

(٢) انظر : السرد في مقامات الهمذاني . أيمن بكر ص٢٠١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

به عندي ، وسيكون لكم به أنس ، وعليه حرص . . . ودعت بشيخها فإذا هو إسكندرينا أبو الفتح[1]".

وهذه الازدواجية في السلوك ، التي تطرحها المقامة (الخمرية) ، هي ما تعاني منها المجتمعات اليوم ، فـ(عيسى) يتخذ إخوانا "للمِقَةِ[2]" ، وآخرين للنفقة" ، وجعل "النهار للناس ، والليل للكاس" ، وجماعة السكارى ، يجيبون داعي الصلاة في لحظة توجههم لحان الخمر. و(الإسكندري) احتال على الناس ، وتظاهر بالتدين والورع ، فهو إمام في المسجد ، وإمام في الفسق وإدارة حانات الخمر ، وما أكثر هؤلاء الذين يتظاهرون بالدين ، ويقولون ما لا يفعلون .

وفي المقامة (القزوينية) ، خدع (البطل) الناس بحيلة عجيبة ، مستغلا حب المؤمنين لدينهم ، ورغبتهم في الجهاد والعطاء في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، فأعلن أنه راجع من بلاد الروم ، وقد أسلم هناك ، وأخفى دينه هو وأسرته ، طالبا من ربه أن ينجيه ، وسار في جنح الليل إلى بلاد الإسلام ، مؤثرا دينه على دنياه ، وقال :

يـــا قـــوم إني رجـل تائب	من بلـد الكفر وأمري عجيب
إن أك آمنـــت فكـــم ليلة	جحـدت ربي وأتيت المريب
يـــا رب خنـــزير تمششـــته	ومسـكر أحرزت منه النصيب
ثـم هـداني الله وانتـــاشني	من ذلة الكفر اجتهاد المصيب
فظلت أخفي الدين في أسرتي	وأعـبد اللـه بقلـب منيـب

الأبيات . . .[3] .

---

(١) المقامة التاسعة والأربعون .

(٢) المقة : المحبة والوداد والإخلاص .

(٣) المقامة الثامنة عشرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم طلب من الناس أن يعينوه على غزو بلاد الروم ، وبين لهم أن سبيل الغزو هو البذل والعطاء ، وحدد لهم لون المساعدة الذي يفيده ، وأنه يقبل القليل والكثير ، فلا مبالغة "زلا شطط ، فكل على قدر قدرته ، وحسب ثروته ، ولا أستكثر البدرة ، وأقبل الدَّرَّة ، ولا أرد التمرة ، ولكن بني سهمان : سهم أذلقه للقاء ، وآخر أفوقه بالدعاء ، وأرشق به أبواب السماء ، عن قوس الظلماء(١)" .

فالديانة "في نظره" متجر ، يعلنها للتكسب ، ويتظاهر بها عند الحاجة ، لذا فقد هيأ النفوس تهيئة قوية ، حين حكى قصة إسلامه المكذوبة في بلاد الروم ، وهروبه بدينه وترك ثروته هناك ، التي كانت "حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلا مسومة ، وقناطير مقنطرة ، وعدة وعديدا ، ومراكب وعبيدا(٢)" ، ليستدر العطف ، وينال العطايا والهبات .

وفي المقامة (الأصفهانية) ، استخدم (البطل) التأثير استخداما غريبا في الكسب المادي ، وبلغ في الحيلة فيها مبلغا عظيما ، وذلك أنه لما قضيت الصلاة في المسجد قام وقال : "من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعرني سمعه ساعة" ، فلزم كلٌّ مكانه لا يبرحه ، فقال : "حقيق على أن لا أقول غير الحق ، ولا أشهد إلا بالصدق ، قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، لكني لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته(٣)" .

فهيأ بذلك مسرح الأحداث باستبقاء الناس في أماكنهم ، حتى يعرض عليهم حيلته ، ثم قال : "رأيته ﷺ في المنام ، كالشمس تحت الغمام ، والبدر ليل التمام ، يسير

---

(١) المقامة السابقة : البدرة : ألف درهم أو أكثر . ذلق السهم : إذا حدده . وفوقه : إذا أعده للرمي .

(٢) المقامة الثامنة عشرة .

(٣) المقامة العاشرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والنجوم تتبعه ، ويسحب الديل ، والملائكة ترمعه ، ثم علمني دعاء أوصاني أن أعلم ذلك أمته ، فكتبته على هذه الأوراق بخلوق ومسك ، وزعفران وسك[1]".

وبعد أن ربط الناس بحيلته ، وصل إلى هدفه بقوله : "فمن استوهبه مني وهبته ومن رد عليَّ ثمن القرطاس أخذته[2]" ، فانثالت عليه الدراهم حتى حيرته ، وكأنه يقبض ثمن سلعة شح وجودها .

وهكذا أظهر البديع من خلال مقاماته ، إلى أي حد بلغ التناقض الصارخ في حياة الناس ، بين القول والفعل ، فلم يكن راضيا عن سلوك الكثيرين من الذين يتزيون بزي الدين ، وهو منهم براء ، أو يدعون التصوف والزهد خداعا وكذبا ، وهو يصدر في ذلك عن عظيم خبرة ، وعميق تجربة .

وهو بذلك يضيق ذرعا بهذه الأخلاق التي وهت ، وهذا الانحلال الذي استشرى فساده ، وهؤلاء الذين يتخذون من الدين ستارا ، ويرفعونه شعارا ، فإذا ما خلوا إلى شياطينهم لم يتورعوا عن أي منقصة ، فهم يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يقولون .

▫ الخرافات والدجل :

تعكس مقامات البديع بعض أحلاق الناس وسلوكهم ، كإيمانهم بالغيبيات والتمائم ، ولم يكن هذا الإيمان مقصورا على العامة ، فقد كان هناك من علية القوم ومن الأمراء من يؤمن بالسحر والتعاويذ والخرافات .

وقد عرض البديع شيئا من ذلك في مقاماته ، فصور من خلالها ما عليه العامة "بصفة خاصة" من اعتقاد في الخرافات ، وإيمان بنفعها ، وتصديقهم إياها في جلب

---

(١) المقامة السابقة : الخلوق : نوع من الطيب الصناعي . السك : ضرب من الطيب .

(٢) المقامة السابقة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النفع ، أو دفع الضر ، مع أنهم لو عقلوا لأسندوا الأمر إلى أهله ، وان الأحراز والتعاويذ لا تفيد إذا حم القدر.

ففي المقامة (الموصلية) ، استغل البطل جهل الناس وسذاجتهم ، وخوفهم من الغرق ، واستطاع خداعهم ، والتكسب من ورائهم ، فقد اصطنع حيلة مكذوبة ، وخدعة غريبة ، جمع فيهما بين الشعوذة واستغلال الدين ، فذكر أنه أتى هو والرواي "قرية على شفير واد السيل يطرفها ، والماء يتحيفها ، وأهلها مغتمون ، لا يمكنهم غمض الليل، من خشية السيل(١)".

فأراد استغلال خوف الناس ليحقق رغبته وينال أمنيته ، فقال : "يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء ومعرته ، وأرد عن هذه القرية مضرته ، فأطيعوني ، ولا تبرموا أمرا دوني ، قالوا : وما أمرك ؟ فقال : اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتوني بجارية عذراء ، وصلوا خلفي ركعتين تثن الله عنكم عنان هذا الماء ، إلى هذه الصحراء ، فإن لم ينثن الماء فدمي عليكم حلال(٢)".

بهذا "يستدعي الإسكندري قصة موسى عليه السلام مع قومه ، عاكسا الأدوار ، فموسى يشق الماء ، ويبدو الإسكندري وقد وعد القوم بشق الصحراء ، لتغيير مجرى السيل . موسى يطلب من قومه أن يذبحوا بقرة صفراء ليدلل من خلالها على صدقه ، والإسكندري يدعو إلى ذبح بقرة صفراء ، وقد أضمر كذبا وخداعا ، ولا تنفصل معابثة الإسكندري للمقدسات عن متعته الشخصية ، إذ ربط الإسكندري بين كل من الأكل وقصة موسى (عليه السلام) والجنس والصلاة(٣)".

---

(١) المقامة الواحدة والعشرون .

يطرفها : يتطرفها ، أي يأتي على أطرافها . يتحيفها : يتنقصها .

(٢) المقامة السابقة . معرته : أذاه .

(٣) السرد في مقامات الهمذاني . أيمن بكر ص١٨٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد أن ذبحوا له بقره ، وزوجوه جارية ، فكر في الهروب ، فقام إلى الصلاة وقال: "يا قوم احفظوا أنفسكم ، لا يقع منكم في القيام كبو ، أو في الركوع هفو ، أو في السجود سهو ، أو في القعود لغو ، فمتى سهونا خرج عملنا عاطلا ، وذهب عملنا باطلا ، واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة ، وقام للركعة الأولى ، فانتصب انتصاب الجذع ، حتى شكوا وجع الضلع ، وسجد ، حتى ظنوا أنه قد هجد ، ولم يشجعوا لرفع الرؤوس ، حتى كبر للجلوس ، ثم عاد إلى السجدة الثانية ..."(١).

وابتغى من هذه الإطالة أن يهيئ طريقاً للهرب ، ووسيلة للفرار ، وقد حدث ، فأومأ إلى (الراوي) وهما في السجود ، وهربا ، وتركا القوم ساجدين ، لا يعلمان ما صنع الدهر بهم .

فهذه المقامة تمثل سخرية من القيم الاجتماعية ، والشعائر الدينية ، وتعرض وجهة نظر عابثة بالمقدسات ، لصالح الجانب اللذائذي من الحياة ، وعلى حساب قوم هم عبيد لخوفهم من الموت .

وفي موقف آخر ، استغل (البطل) خوف الناس من الغرق بسفينتهم ، واستثمر حالتهم التي كان الرعب يملؤها ، ففي المقامة (الحرزية) ، يحكي الراوي انه ركب سفينة ومجموعة من المسافرين ، وبعد أن أبحرت السفينة " وجن علينا الليل ، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالا ، وتحدو من الغيم جبالا ، بريح ترسل الأمواج أزواجا ، والأمطار أفواجا ، وبقينا في يد الحين ، بين البحرين ، لا نملك عدة غير الدعاء ، ولا حيلة

---

(١) المقامة الواحدة والعشرون .

الكبو : الوقوع بعد الملل والتعب . الهفو : الإسراع . انتصاب الجذع : معتدلاً ثابتاً . هجد : نام .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا البكاء ، ولا عصمة غير الرجاء ، وطويناها ليلة نابغية ، وأصبحنا نتباكا ونتشاكا[1]".

في هذه الظروف القاسية ، أعمل البطل عقله ، واستغل ذكاءه في اصطناع حيلة غريبة ، انخدع الناس بها ، واستثمر حال هؤلاء الفزعين ، فتظاهر بأنه "لايخضل جفنه ولاتبتل عينه ، رخي الصدر منشرحه ، نشيط القلب فرحه[2]".

فأنخدع الناس بحاله ، وتعجبوا من أمانه ، وهم في موقف عصيب ينذرهم الموت ، فانتظروا منه أي شئ للحفاظ على الحياة ، وقالوا في لهفة الخائف :"ما الذي أمنك من العطب ؟ فقال : حرز لا يغرق صاحبه ، ولو شئت أن أمنح كلا منكم حرزا لفعلت فكل رغب إليه ، وألح في المسألة عليه ، فقال : لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم دينارا الآن ، ويعدني ديناراً إذا سلم[3]".

فأعطوه ما طلب ووعدوه بتنفيذ ما رغب ، فأدخل يده في جيبه "فأخرج قطعة ديباج فيها حقة عاج ، قد ضمن صدرها رقاعا ، وحذف كل واحد منا بواحدة منها ، فلما سلمت السفينة وأحلتنا المدينة ، اقتضى الناس ما وعدوه ، فنقدوه[4]".

---

(١) المقامة الثالثة والعشرون .

حن علينا الليل : سترنا وأخفانا . غشيتنا : غطتنا . تحدو : تسوق . الحين : الهلاك . نابغية : نسبة إلى النابغة الذبياني ، أي كليلة النابغة الذبياني التي يصف حاله فيها بقوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

(٢) المقامة الثالثة والعشرون .

لايخضل جفنه : لايبتل جفنه . وهو كناية عن عدم البكاء . رخي الصدر : واسعه ، وهو كناية عن عدم التألم .

(٣) المقامة السابقة .

(٤) المقامة السابقة .

حقة عاج : الحقة : وعاء صغير . والعاج : سن الفيل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا استطاع (أبو الفتح) استغلال خوف الناس من الغرق، وبدلاً من أن يخاف مثلهم، تظاهر برباطة الجأش، وقوة الأعصاب، وخدعهم، وتكسب منهم بهذه الحيلة العجيبة، التي يبدو أنه قد بيت النية عليها مسبقا حيث إنه قد احتفظ في جيبه بما احتال به عليهم، ثم إنه فكر جيداً في هذه الحيلة، وأحسن حبكها، لأنهم إن نجوا فقد فاز بما أراد، وإن غرقوا فسوف يغرق معهم، ولن يستطيع أحد أن يسأله عن فائدة حرزه، أو يكلفه عذراً على فعله.

وفي المقامة (الموصلية) اصطنع (البطل) حيلة كاذبة، وخدعة باهتة، استغل فجيعة الناس في مصابهم، وحسرتهم على فقيدهم، فاستخف بعقولهم، فقد ذهب إلى دار قد مات صاحبها، وقامت نوادبها، واحتفلت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم، وشقت الفجيعة جيوبهم، ونساء قد نشرن شعورهن، يضربن صدورهن، وجددن عقودهن، يلطمن خدودهن(١)".

وفي الدار واجه كل الطقوس المعتاد إقامتها في مثل هذه الحالة، فقد شاهد الميت وقد شدت عصابته لينقل، وسخن ماؤه ليغسل، وهيئ تابوته ليحمل، وخيطت أثوابه ليكفن، وحفرت حفرته ليدفن(٢)".

ففكر في استغلال الموقف، واستثمار مصيبة القوم، فاحتال عليهم، واصطنع خدعة شيطانية، لذا نال عقابه عليها، فقد تجاوز كل الأعراف التي تمنح الميت قدسية إذ عبث بجسد الميت، بل وأدى عبثه إلى تطاول الجماعة كلها على الميت بالطريقة نفسها، حين رأى الميت قد "أخذ حلقه، فجس عرقه، فقال يا قوم، اتقوا الله لا تدفنوه فهو حي، وإنما عرته بهتة، وعلته سكتة، وأنا أسلمه مفتوح العينين بعد

---

(١) المقامة الواحدة والعشرون. جددن: قطعن.

(٢) المقامة الواحدة والعشرون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يومين ، فقالوا : من أين لك ذلك ؟ فقال : إن الرجل إذا مات برد استه ، وهذا الرجل قد لمسته فعلمت أنه حي ، فجعلوا أيديهم في استه ، فقالوا : الأمر على ماذكر ، فافعلوا كما أمر(١)".

وبدأ حيلته ، فقام إلى البيت "فنزع ثيابه ، ثم شد له العمائم ، وعلق عليه تمائم ، وألعقه الزيت ، وأخلى له البيت ، وقال : دعوه ولا تروعوه ، وإن سمعتم له أنينا فلا تجيبوه(٢)".

وبعد أن علق تمائمه على الميت ، "خرج من عنده وقد شاع الخبر وانتشر ، بأن الميت قد نشر(٣)" ، فانهالت عليه العطايا من كل دار ، وانثالت عليه الهدايا من كل جار ، حتى امتلأ كيسه فضة وذهبا ، وعبئ رحله جبنا وتمرا .

وحاول ـ بعد ذلك ـ انتهاز فرصة في الهرب ، فلم يجدها ، حتى حل الأجل المضروب ، واستنجز الأهل الوعد المكذوب ، قال لهم : "هل سمعتم لهذا العليل ركزا ، أو رأيتم منه رمزا ؟ فقالوا : لا ، فقال : إن لم يكن صوت مذ فارقته ، فلم يجئ بعد وقته ، دعوه إلى غد ، فإنكم إذا سمعتم صوته ، أمنتم موته ، ثم عرفوني لأحتال في علاجه . وإصلاح ما فسد من مزاجه(٤)".

---

(١) المقامة السابقة .

عرته : نزلت به ودهته . بغتة : بغتة ، أي أمر منعه عن الحديث وشبهه من أمارات الحياة .

(٢) المقامة السابقة .

(٣) المقامة السابقة .

(٤) المقامة السابقة . الركز : الصوت الخفي . الرمز : الإشارة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأعطوه فرصة أخيرة إلى غد ، لتحقيق وعده المكذوب . . فذهب إليه "وحدر التمائم عن يديه ، وحل العمائم عن جسده ، وقال : أنيموه على وجهه ، فأنيم، ثم قال : أقيموه على رجليه ، فأقيم ، ثم قال : خلوا عن يديه ، فسقط رأسا[1]".

وبعد ما فشلت تمائمه ، وظهر كذبه ، وافتضح أمره ، بعد محاولات عديدة ليغطي بها موقفه الذي بناه على أمر مستحيل تحقيقه ، غير مأمون عاقبته ، وهو إحياء الميت، ضربوه ضربا مبرحا ، ولم يكد ينشغل القوم في تجهيز فقيدهم الذي مضى على موته يومان ، حتى انتهز الفرصة ، فانسل هاربا ، وأطلق ساقيه للريح .

ولاشك أن البديع يكشف بذلك كله زيف هؤلاء الذين يتخذون من الدين قناعا ، يستترون من خلفه ، ويستغلون سذاجة العامة وبساطه فكرهم ، ويدجلون عليهم ، فقد شاعت الخرافات ، وانتشرت الأوهام والأباطيل ، حتى طمست على القلوب والعقول، وتلك سمة التردي الاجتماعي ، فاستغل هؤلاء المدجلون والمشعوذون ذلك استغلالاً مقيتا ، وكأنه بذلك ينعي على الناس أنهم يصدقون ما يخالف العقل .

▫ الأدواء الخلقية :

كشف بديع الزمان الهمذاني عن أخلاق كثير من الناس في عصره ، وأظهرت مقاماته مدى الاستهانة بالقيم الأخلاقية المتعارف عليها ، وما كان عليه المجتمع من انحلال أخلاقي ، تمثل في وجود حانات الخمر ، وأماكن اللهو المنتشرة في كل بلد .

وربما ظهر ما يمكن أن يعد استخفافا بالقيم الأخلاقية السائدة في التعامل مع المسجد ، بوصفه رمزًا للدين ، الذي يعد جماع القيم الأخلاقية ، أو الاستهانة بالصلاة بصورة أعم .

---

(١) المقامة الواحدة والعشرون . حدرها : أبعدها ونحاها عن مكانها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ففي المقامة (الخمرية)[1] ، يدخل (عيسى) وجماعته المسجد لأداء الصلاة ، ورائحة الخمر تفوح منهم ، ويكتشف الإمام ذلك ، فيؤلب جماعة المصلين عليهم ، علما بأنه هو نفسه أبو الفتح الإسكندري ، رب الحان ، ومقدم الخمر ، ومطرب الليل ، وهنا تبدو فكرة الازدواج بين الظاهر والباطن ، إذ يؤم الناس للصلاة ، وفي الحان تبدو صورته الأخلاقية الحقيقة .

وفي المقامة (الرصافية)[2] قصة مجونية مفحشة ، لأمر حدث بين شيخ (أبي الفتح) وغلام ، جاء فيها "ما يضحك السامع ويشبع الجائع"، لينبه (البديع) من خلالها ، عما يمثل شذوذاً عن القيم الأخلاقية .

يجاهر أبو الفتح - من خلالها - بواقعة له مع بعض الغلمان ، فيقول :" اعلم أني كنت بالمراغة ، في صف الصاغة ، فرأيت فتى قد بقل وجهه أو كاد ، كأنه العاج في يد كريم ...."[3] وهنا توقف ناشروا المقامات عن إتمامها ، لما فيها من فحش وانحلال .

فلقد اشتهى أبو الفتح هذا الغلام ، وراوده عن نفسه بالمال ، فلم يفلح في إقناعه . وذات ليلة كان الإسكندري نائماً مع جارية له ، إذ عن له سواد على سطح الدار ، فإذا هو الغلام نفسه قد جاء سارقاً ، فيقوم أبو الفتح بمراودة الفتى ، وخداعه ، وتهديده . حتى حقق مبتغاه[4] .

---

(١) المقامة التاسعة والأربعون .

(٢) المقامة الثلاثون .

(٣) المقامة السابقة .

(٤) انظر : السرد في مقامات الهمذاني : ايمن بكر ـــ ص١٦٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي المقامة (الشامية)[1] كثير من دلائل الانحلال الخلقي ، مما دفع ناشري المقامات وشارحيها إلى حذفها من طبعاتهم ، لما حوت من أفعال وألفاظ يخجل لها المرء ، ويندى لها جبين القارئ .

ففيها "توجهت زوجتا رجل إلى القاضي تطلبان الطلاق ، فاستجوب القاضي الزوج أولاً ،ثم الزوجتين ، فإذا بنا نقرأ كلاماً على لسان الزوج ، وآخر على لسان الزوجتين ، كله إباحية وفحش ، نعف عن ذكره في هذا المقام[2]".

وقد ذكر الإمام الشيخ محمد عبده في شرحه لمقامات الهمذاني ، أن سبب تركه هذه المقامة وبعض أجزاء المقامات الأخرى ، أن "منها ما يستحي الأديب من قراءته ، ويخجل مثلي من شرح عبارته ، ولا يجمل بالسذج أن يستشعروا معناه ، أو تنساق أذهانهم إلى مغزاه[3]".

وتكشف المقامات - أيضاً - عما كان يشيع بين الناس من عبارات الشتم الموجع، والسب المقزع ، وما كان يستعر بينهم من خصومات وأحقاد ، فأورد البديع طائفة من الشتائم المنتقاة ، والإجابات اللاذعة في مباراة بين شخصين متسابقين على دينار يعطى لأيهما أشتم من صاحبه ، وتلك نتيجة لما كان يقاسيه الناس من الفاقة والفقر والحرمان .

ففي المقامة (الدينارية) ، عقدت مباراة في الشتم والقذف بين أبي الفتح الإسكندري و شخص آخر ، ومع ذلك السب رأينا الفصاحة والغرابة معاً ، بجانب كثير من الفكاهة والظرف .

---

(١) لم يذكرها ناشرو المقامات وشارحوها .

(٢) بديع الزمان الهمذاني : د. مصطفى الشكعة ـــ ص٣٨٨ .

(٣) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني . شرح الشيخ محمد عبده . المقدمة ـــ ص٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول أبو الفتح لصاحبه : "يا برد العجوز ، يا كربة تموز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ، يا حديث المغنين ، يا سنة البوس ، يا كوكب النحوس ، يا وطأ الكابوس ، يا تخمة الرؤوس ، يا أم حبين ، يا رمد العين ، يا غداة البين ، يا فراق المحبين ، يا ساعة الحين ، يا مقتل الحسين ، يا ثقل الدين ، يا سمة الشين ، يا بريد الشوم ، يا طريد اللوم ، يا ثريد الثوم ، يا بادية الزقوم ، يا منع الماعون ، يا سنة الطاعون ، يا بغي العبيد ، يا آية الوعيد ، يا كلام المعيد ، يا أقبح من حتى ، في مواضع شتى ، يا دودة الكنيف ، يا فروة في المصيف ، يا تنحنح المضيف إذا كسر الرغيف ، يا جشاء المخمور ، يا نكهة الصقور ، يا وتد الدور ، يا خذروفة القدور ، يا أربعاء لا تدور ، يا طمع المقمور ، يا ضجر اللسان ، يا بول الخصيان ... (١)".

فيجيب الثاني بإجابات لاذعة ، وشتائم مقذعة ، فيقول : " يا قراد القرود ، يا لبود اليهود ، يا نكهة الأسود ، يا عدماً في وجود ، يا كلباً في الهراش ، يا قرداً في الفراش ، يا قرعية بماش ، يا أقل من لاش ، يا دخان النفط ، يا صنان الإبط ، يا زوال الملك ، يا هلال الهلك ، يا أخبث ممن باء بذل الطلاق ، ومنع الصداق ، يا وحل

---

(١) المقامة الثالثة والأربعون . برد العجوز : أيام سبعة في آخر الشتاء ، وهي أشد الأيام برداً . وسخ الكوز : صدأه ، أو ما يبقى فيه من قذر الماء ووساخته . درهما لا يجوز : لا يتعامل الناس به لرداءته و غشه . البوس : البؤس و الشدة و الجدب و القحط . كوكب النحوس : النجم الذي يأتي بطلوعه علائم النحس و سوء الطالع مثل (زحل) . تخمة الرؤوس : الطعام الفاسد أو الكثير . أم حبين : دويبة كريهه المنظر . غداة البين : ساعة الفراق ، وهي أشأم الساعات و أقساها . الحين : الموت و الهلاك . البريد : الرسول . طريد اللؤم : المطرود من مجامع الناس للؤمه و خسته . ثريد الثوم : أشد الروائح كراهة . بادية الزقوم : صحراء بها شجر مر كريه . الماعون : كل ما يستعار من منافع البيت ، وقيل هو الزكاة . بغي العبيد : ظلم العبيد . كلام المعيد : المكرر . أقبح من حتى : لكثرة مسائلها العويصة . جشاء المخمور : تنفس المخمور ، و هو تنفس كريه . نكهة الصقور : رائحة الفم المنتنة . خذروفة القدور : ما يصنع من الطين ليوضع عليه القدر . أربعاء لا تدور : آخر أربعاء من شهر (صفر) ، عرف عند العامة بأن نحس . المقمور : المغلوب في القمار ، وطمعه قبيح لأنه يزيد من خسارته ، ضجر اللسان : تعبه و عيه . بول الخصيان : لأن بول الخصيان ينتشر فيلوث البدن ، ولا يتحكم فيه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريق، يا ماء على الريق، . . . يا قلح الأسنان ، يا وسخ الآذان ، يا أجر من كلس ، يا أقل من فلس ، يا أفضح من عبرة ، يا أبغى من إبرة ، يا مهب الخف ، يا مدرجة الأكف . . .[1]".

ويبدو أن كلا منهما كان أفصح من الآخر، وحريصاً على غلبة صاحبه ، فاستطاع بما يملك من براعة في الوصف ، وقوة في البيان أن يذكر الشتائم الغريبة والسباب العجيب ، حتى يظفر بالدينار المستحق ، لدرجة أن المحكم لم يستطع أن يحكم لأحدهما بالتفوق ، فقال : " فوالله ما علمت أي الرجلين أوثر ؟؛ وما منهما إلا بديع الكلام ، عجيب المقام ، ألد الخصام ، فتركتهما والدينار مشاع بينهما[2]".

▫ التسول والاحتيال :

شهدت الفترة التي عاشها البديع ، والفترة التي سبقتها ـ أيضاً ـ ظهور فئة من الأدباء المتجولين المنحدرين من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، أخذوا يطوفون أرجاء البلاد العربية والإسلامية ، وينشدون الأشعار ، ويرددون الطرائف الأدبية ، والنوادر في مجالس الأثرياء و الأمراء ، وفي الأماكن العامة لاكتساب الرزق .

---

(١) المقامة السابقة . قراد القرود : الذي يدرب القرد و يلعبه . اللبود : دويبة تنشأ من الوساخة تشبه القمل . الهراش : تحرش الكلاب بعضها ببعض . القرعية : طعام يتخذ من القرع . الماش : حب أشبه بالباقلاء ، و إذا طبخا معا كان طعمهما كريها . لاش : لا شيء . النفط : دهن كريه الرائحة ، كريه الدخان . هلال الهلك : ذو مطلع مشئوم . قلح الأسنان : وسخها و ما يعلوها من صفرة . الفلس : حبل يتخذ من ليف أو نحوه لتجربه الأشياء ، فهو دائماً على الأرض . أبغي من إبرة : يتخذ الناس مثل الإبرة ، فهو ظالم باغ . مهب الخف : كثير الضرب به على قفاه . مدرجة الأكف : كناية عن كثرة ضربه .

(٢) المقامة السابقة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير أن هذه الظاهرة بشكلها الذليل ، ظاهرة اجتماعية غريبة عن المجتمع العربي ودخيلة عليه ، لأنها تتنافى و الإباء أو الشمم الذي يتصف به العربي ، امتهنتها فئات اجتماعية غير عربية الأصل ، أزرى بها الدهر ، نزحت إلى مركز الخلافة الإسلامية بعد أن اعتنقت الإسلام .

وظاهرة الشحاذة أو التسول من أهم الموضوعات التي تناولتها المقامات ، إذ أن الفقر و البؤس كانا شائعين بين الناس ، وقد عانى كثير من الأدباء من شظف العيش و أعباء الحياة ، لذلك جاءت المقامات ، لتصور حياة هؤلاء البائسين من الأدباء الذين عاشوا حياة الفقر و الحرمان .

ولم يكن ل (بطل) المقامات هدف إلا التكسب عن طريقها و من ورائها ، فقد بذل قصارى جهده من أجل الوصول إلى غايته ، و في سبيلها يضع الحيل المختلفة و الألاعيب المتنوعة ، ويصطنع المظهر الذي يتلاءم مع غايته ، ويتناسق مع رغبته .

فنراه أحيانا قد اعتمد على المظهر ، واتخذه سبيلا إلى الشحاذة ، التي هي وسيلة إلى جمع المال ، وخداع الناس ، متخذا طريقة التسول ، وهي طريقة مكروهة ، لذا نراه يغلفها بما يقلل من ضيق الناس بها .

ففي المقامة (المكفوفية) ، اتخذ من مظهره وسيلة إلى نيل ما يريد ، فقد سار يخبط الأرض بعصا على إيقاع لا يختلف ، والنظارة حوله ، وهو في هيئة "أعمى مكفوف ، في شملة صوف ، يدور كالخذروف ، متبرنسا بأطول منه ، معتمدا على عصا فيها جلاجل ، يخبط الأرض بها على إيقاع غنج ، بلحن هزج ، وصوت شج ، من صدر حرج ، وهو يقول :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا قوم قد أثقل ديني ظهري وطـــالبتني طلتي بالمهر

أصبـحت من بعد غني ووفر ســـاكن قفر وحليف فقر

يا قـــوم هل بينكم من حر يعينني على صروف الدهر

الأبيات[1]" ... فقد اصطنع هيئة مكفوف ، فهو متعام وليس أعمى ، ليؤثر في الناس ويستدر عطفهم ، وليجيبوه في تلبية ما يطلب ، لأنه يعلم رفق الناس بالمكفوفين .

وحينا نراه يتخذ من ضعفه وسيلة إلى التأثير على الناظرين ، ودافعا إلى طلب الزاد والراحلة ، ففي المقامة (الأذربيجانية) ، وقف (البطل) بأحد أسواق أذربيجان "بركوة قد اعتضها ، وعصا قد اعتمدها ، ودنية قد تقلسها ، وفوطة قد تطلسها ، فرفع عقيرته وقال : اللهم يا مبدئ الأشياء ومعيدها ، ومحيي العظام ومبيدها ، وخالق الإصباح ومديره ، وفالق الإصباح ومنيره ، ... أسألك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين ، وأن تعينني على الغربة أثني حبلها ، وعلى العسرة أعدو ظلها[2]" .

ولم يقتصر على طلب الزاد ، بل جعل من ضعفه دافعا إلى طلب راحلة تهون عليه مشاق السفر وطول الطريق ، فقال "... وأن تسهل لي على يدي من فطرته الفطرة ، وأطلعته الطهرة ، وسعد بالدين المتين ، ولم يعم عن الحق المبين ، راحلة تطوي هذا الطريق ، وزادًا يسعني والرفيق[3]" .

---

(١) المقامة السادسة عشرة . الخذروف : اللعبة التي تسمى (النحلة) . غنج : حسن . الطلة : الزوجة .

(٢) المقامة الثامنة : الركوة : وعاء يجمع فيه ما يحصله . اعتضدها : جعلها في عضـــده . الدنيـــة : القلنســـوة . تقلسها : لبسها . الفوطة : ثوب سندي . تطلسها : اتخذها طيلسانا . أثني حبلها : أكيح جماحها . أعدو : أفارق .

(٣) المقامة السابقة : فطرته : أنشأته . الفطرة : الدين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكثيرا ما اتخذ من مظهر أبنائه وسيلة إلى الشحاذة واستدرار العطف ، ففي المقامة (الأزاذية) وقف (البطل) وقد "لف رأسه ببرقع حياء ، وبسط يده ، واحتضن عياله ، وتأبط أطفاله ، وهو يقول بصوت يدفع الضعف في صدره ، والحرض في ظهره :

ويلي على كفين من سويق	أو شحمة تضرب بالدقيق
أو قصعة تملأ من خرديق	يفثأ عنا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق	يا رازق الثروة بعد الضيق

الأبيات . . . (١)".

فقد ابتغى وراء ذلك عطف الناس ، إن لم يكن من حاله ، فليكن رحمة بأطفاله ، الذين يعانون قسوة الفقر ، ومرارة الحرمان ، ولا يجدون ما يقيم أودهم ، ويجعلهم في عالم الأحياء .

وفي المقامة (البخارية) دخل (البطل) جامع بخارى وقد "استتلى طفلا عريانا ، يضيق بالغد وسعه ، ويأخذه القر ويدعه ، لا يملك غير القشرة بردة ، ولا يكتفي لحماية رعدة (٢)".

وظل حتى امتلأ الجامع بأهله ، وقف وقال : "لا ينظر لهذا الطفل إلا من الله طفله ، ولا يرق لهذا الضر إلا من لا يأمن مثله ، يا أصحاب الجدود المفروزة ، والأردية المطروزة ، والدور المنجدة ، والقصور المشيدة ، إنكم لن تأمنوا حادثا ، ولن تعدموا وارثا ، فبادروا الخير ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن (٣)".

---

(١) المقامة الثانية : الحرض : الضعف الشديد الذي يودي بصاحبه . الخرديق : المرق . يفثأ : يسكن .

(٢) المقامة السابعة عشرة : البردة : الثياب . الرعدة : قشعريرة البدن من برد ونحوه .

(٣) المقامة السابقة : الجدود : الحظوظ . المفروزة : الممتازة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم ترك الطفل ، وابتعد عنه ، وقعد مرتفعا ، وقال له : "أنت وشأنك ، فقال ما عسى أن أقول ، وهذا الكلام لو لقى الشعر لحلقه ، أو الصخر لفلقه ، وإن قلبا لم ينضجه ما قلت لنيئ ، وقد سمعتم يا قوم ، ما لم تسمعوا قبل اليوم ، فليشغل كل منكم بالجود يده ، وليذكر غده ، واقيا بي ولده ، واذكروني أذكركم ، وأعطوني أشكركم(١)" .

فقد استرحم الناس واستدر عطفهم وشفقتهم على طفل عريان ، قد اصطحبه ، معه إلى الجامع ، وادعى أبوته ، وما هو بابنه ، واتخذه أحبولة لابتزاز الأموال ، والكسب غير المشروع ، وهي ظاهرة اجتماعية شائعة مألوفة .

وقد يلجأ (البطل) إلى إخفاء مطلبه بأمور تحفظ ماء وجهه ، ويخفف بها من صراحة مطلبه في الشحاذة ، فتجعله ولو في نظر نفسه مستحقا لما ينال ، أو لما يطلب .

فنراه في المقامة (القريضية) يظهر مقدرته على البيان والفصاحة ، يقول لجلسائه : "ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصم ، وينزل العصم(٢)" .

وأنه ـ أيضا ـ ناقد خبير بالشعر والأدب ، فحين سأله الحاضرون عن امرئ القيس ، أجابهم بقوله : "هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسبا ، ولم يجد القول راغبا ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه(٣)" .

وسئل عن شعراء كثيرين وأجاب ، ثم طلب منه أحد الحاضرين سماع شعره وأخباره فقال : "خذهما في معرض واحد ، وقال :

---

(١) المقامة السابقة .

(٢) المقامة الأولى .

(٣) المقامة السابقة : من ذلك قوله : (قفا بنك من ذكرى حبيب وعرفان) ، وقوله : (قفا بنك من ذكرى حبيب ومنزل) ، والوكنات : أعشاش الطير .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمـــا تروني اتغشى طمرا ،متطليا في الضر أمرا مرا

مضطبنـا على الليالي غمرا ملاقيا منها صروفا حمرا

أقصى أماني طلوع الشعرى فقد عنينا بالأماني دهرا

الأبيات ..."(١).

فقد استطاع أن يبهرهم بفصاحته ، ومعرفته بالشعر والأدب ، ثم ذكر ما حدث له من فقر بعد الغنى ، وذكرهم بأبنائه وزوجه العجوز ، وهو يقصد بعرض حاله التأثير على السامعين ، والاستفادة من وراء كسب الشفقة عليه ، فاتخذ من النقد مادة خصبة لعرض مطلبه ، وتحقيق رغبته ، واستفاد بمعرفته الأدب والأدباء ، واستغل براعته الأسلوبية في عرض مطلبه .

وأحيانا يدور (البطل) ويحوم حول مطلبه ، متذرعا بالمدح والثناء ، واللف والدوران ، وهو مدح رخيص لا تفنن فيه ولا روح ، وهو كلام أكثره مظاهرة ومداجاة وتملق .

ففي المقامة (الفزارية) ، يقول عندما سئل عن حرفته : "أجوب جيوب البلاد ، حتى أقع على جفنة جواد ، ولي فؤاد يخدمه لسان ، وبيان يرقمه بنان ، وقصاراي كريم يخفض لي جنيبته ، وينفض إليَّ حقيبته ، كابن حرة طلع عليّ بالأمس ، طلوع الشمس ، وغرب عني بغروبها ، لكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودع وشيعتني آثاره ، ولا ينبئك عنها ، أقرب منها ، وأومأ إلى ما كان لبسه"(٢).

وعندما طلب منه تصوير ذلك شعرا ، قال :

---

(١) المقامة الأولى . اتغشى طمرا : أرتدي ثوبا باليا . الأمر : الشديد . مضطبنا : حاملا . الغمر : الحقد والغل . الشعرى : نجم يظهر في الصيف ، وتلك أمنية العاري الذي لا يجد ثوبا يقيه زمهرير البرد .

(٢) المقامة الرابعة عشرة : قصاراي : منتهى أملي . جنيبته : أحد شقي محمله .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأروع أهـــداه لي الليل والفلا ... وخمس تمس الأرض لكن كلا ولا

عرضت على نار المكارم عوده ... فكـــان معمـــا في السيادة مخولا

الأبيات ... (١)".

فقد ورى عن مطلبه بحديثه عن الكريم الذي منحه ، وآثار عطيته عليه ، مهيئا المجال بذلك لما يريد ، حتى يمنحه غيره .

وقد يتخذ (البطل) من الدعاء وسيلة إلى ما يريد ، إذ النفس البشرية تسر للدعاء، وتفرح به ، ويهتز الكريم له ، فيقدم عطاياه بطيب نفس ما يجعله أهلا لهذا الدعاء ، وجديرا به .

فمن دعائه الحسن ، قوله في المقامة (الأزاذية) :

يا رازق الثروة بعد الضيق

الأبيات ...

وبعد أن نال مطلبه ، قال :

يا مـــن عناني بجميل بره ... أقض إلى الله بحسن سره

واستحفظ الله جميل ستره ... إن كان لا طاقة لي بشكره

فالله ربي من وراء أجره (٢)

---

(١) المقامة السابقة : الأروع : الشهم . خمس تمس الأرض : الأرجل لأن أصابعها خمسة . كلا ولا : كناية عن سرعة السير . معما مخولا : له عم وخال ، فهو عريق في السيادة .

(٢) المقامة الثانية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهو في دعائه حريص على أن يختار من الألفاظ ما يفيده في حاجته ، فاختار لفظة (الرازق) ، كما اختار لفظتي (سره وستره) ، ليرشد صاحب العطية إلى أن يجعلها سرا .

وأبو الفتح الإسكندري يدين عصره من خلال حيله ، فهو صورة لفئة البائسين الذين عاشوا على هامش المجتمع ، عن طريق التسول والشحاذة ، لأن مجتمعهم كانت تدور قيمه على سلطان المال .

واقتناص البديع لهذه الصور وتجسيدها ما هو إلا "لون من التمرد على تلك العلاقات الظالمة التي كانت تسود المجتمع ، وتعبير عن نقمة تغلي بها صدور أهل العلم والأدب على موازين العصر ، التي قست عليهم حتى هوت بهم إلى هذا المنحدر ، وفرضت عليهم تلمس الرزق عن طريق الكدية ، وكأن العلم والأدب أمور لا تجدي نفعا ، ولا تحقق لصحابها خيرا ، ولا تكفل له حياة رضية ، في كنف مجتمع لا يقيس قيم الأشخاص إلا بما يملكون من مال ، وما يحوزون من سلطان[1]" .

▫ العوز والحرمان :

يصور البديع عصره ، وقد علت فيه قيمة المال ، حتى صار هو المعيار الأوحد ، ومجتمع كهذا ، شأنه التناقض الصارخ بين أفراده ، مما جعله يضيق ذرعا بالحياة من حوله ، فحياة الضنك التي تفرض سلطانها عل السواد قد آذت نفسه ، وأمضت ضميره ، فصورها في صور فكهة ، فيها جانب كبير من السخرية المرة ، علها تثير في النفوس الإحساس بمعاناة الغير ، أملا في أن يدفعها ذلك إلى التغيير .

---

(١) النموذج الإنساني في أدب المقامة . د. علي عبد المنعم عبد الحميد ص٦٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحمل مقاماته العديد من صور التناقض بين الطبقات في مجتمعه ، فقد كان ولاة الأمور يعيشون في غنى وثراء وسرف وبذخ ، و"أدخلوا على بلاطهم ألوانا من الترف والنعيم ، لم يعهدها المسلمون من قبل ، فتفننوا في إنشاء القصور والحدائق ، وأنفقوا الكثير من الأموال على تزيينها وزخرفتها ، واستنبتوا البساتين التي حاكت الجنان فتنة وجمالا ، وملئوا قصورهم بالجواري والغلمان (١)" .

ولقد شاركهم في هذه الحياة المترفة التجار الجشعون ، وأصحاب الملايين ، وفي المقامة (الصيمرية) جانب من حياتهم ، فقد اختار (الراوي) جماعة منهم للصحبة ، واندس في وسطهم ، وصور حياته معهم بقوله : "فلم نزل في صبوح وغبوق ، نتغذى بالجدايا الرضع ، والطباهجات الفارسية ، والمدققات الإبراهيمية ، والقلايا المحرقة ، والكباب الرشيدي والحملان ، وشرابنا نبيذ العسل ، وسماعنا من المحسنات الحذاق ، الموصوفات في الآفاق ، ونقلنا اللوز المقشر ، والسكر والطبرزد ، وريحاننا الورد ، ويخورنا الند (٢)" .

وفي الطرف المقابل لهم ، كان الكثير من عامة الشعب يعانون شظف العيش ، وهم العمال الكادحون وغيرهم من الفقراء ، وتصور المقامة (الساسانية) مظاهرة لجماعة من الفقراء ، سارت في البلاد طلبا للرزق ، و"قد لفوا رؤوسهم وطلوا بالمغرة

---

(١) بديع الزمان الهمذاني : د. مصطفى الشكعة ص٢٢ .

(٢) المقامة الثانية والأربعون : . الصبوح والغبوق : الشرب صباحا ومساء . الجدايا : جمع (جدى) ، وهو جمع غير معروف ، وهو الذكر من أولاد المعز في سنته الأولى . الطباهجات : جمع (طباهجة) ، وهو ضرب من اللحم المشرح ، يصنع مع البيض والبصل . المدققات : اللحم المفروم ، وهو ما يطلقون عليه اليوم (كفتة) . الإبراهيمية: نسبة لإبراهيم بن المهدي ، لأنه كان يتأنق فيها . القلايا : وهو ما يقلى من اللحم وغيره . المحرقة : التي تزيد في العطش . الرشيدي : نسبة لهارون الرشيد . النقل : هو ما ينقل من الشرب إليه ، ومنه إلى الشرب ، ويسمى الآن (مزة) . الطبرزد : نوع من السكر الصلب ، ويسمى الآن (سكر نبات) . الند : العنبر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجرا يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه ، . . . قال :

أريد منك رغيفا ... يعلو خوانا نظيفا
أريد ملحا جريشا ... أريد بغلا قطيفا
أريد لحما غريضا ... أريد خلا ثقيفا

الأبيات . . . (١)".

ولقد شاركهم في هذه الحياة البائسة كثير من العلماء والأدباء ، ممن آثروا عزة النفس ، ولم يريقوا ماء وجوههم في ذل السؤال ، فأعلن البديع تبرمه وضيقه من زمان علت فيه السفلة ، فيقول في المقامة (الساسانية) :

هذا الزمان مشوم ... كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح ... والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولكن ... حول اللئام يحوم (٢)

ويصور في المقامة (المطلبية) ثورة أحد العلماء ، عندما ذكر في أحد المجالس فضل المال ، وأنه زينة الرجال ، وغاية الكمال ، فقال : "صه لقد عجزتم عن شيء عدمتموه ، وقصرتم عن طلبه فهجنتموه ، وخدعتم عن الباقي بالفاني ، وشغلتم عن النائي بالداني . . . هل المال إلا عارية مرتجعة ، ووديعة منتزعة ؟ ينقل من قوم إلى آخرين ، وتخزنه الأوائل للآخرين ، هل ترون المال إلا عند البخلاء ، دون الكرماء ،

---

(١) المقامة التاسعة عشرة : المغرة : طين أحمر يجعل صبغا . لحم غريض : طري . خل ثقيف : شديد الحموضة .
(٢) المقامة السابقة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجهال دون العلماء ؟ إياكم والانخداع فليس الفخر إلا في إحدى الجهتين ، ولا التقدم إلا بإحدى القسمين : إما نسب شريف ، أو علم منيف[1]".

وفي المقامة (الوعظية) ، تقمص (البطل) شخصية أحد الوعاظ ، فقال : "ألا وإن الفقر حلية نبيكم فاكتسوها ، والغنى حلة الطغيان فلا تلبسوها ، . . . ألا وإن العلم أحسن على علاته ،والجهل أقبح على حالاته ، وإنكم أشقى من أظلته السماء ، إن شقى بكم العلماء ، الناس بأئمتهم ، فإن انقادوا بأزمتهم ، نجوا بذمتهم ، والناس رجلان : عالم يرعى ، ومتعلم يسعى ، والباقون هامل نعام ، وراتع أنعام ، ويل عال أمر من سافله ، وعالم شيء من جاهله[2]".

وكان هناك كثير من الأدباء يعانون من الحرمان والفقر ، وشظف العيش ، ومحاربة الدهر لهم ، ولا يجد الواحد منهم من يشجعه أو يعطف عليه ، ويعينه على أعباء الحياة ، فصور حياة هؤلاء البائسين من الأدباء الذين انصرف الحكام عن تشجيعهم ، وتركوهم يعيشون حياة الفقر والعوز ، بقوله في المقامة (العراقية) :

بؤسا لهذا الزمان من زمن ... كل تصاريف أمره عجب
أصبح حربا لكل ذي أدب ... كأنما ساء أمه الأدب[3]

ومع اتساع الفجوة بين طبقات المجتمع ، لم يكتف الأغنياء ببخلهم بأموالهم ، ومنعهم الفقراء رفدهم ، بل سخروا منهم وأعطوهم من حلو الكلام ، ولذيذ الحديث ما

---

(١) المقامة الخمسون : التعلة : ما يتعلل به من طعام ونحوه .

(٢) المقامة السادسة والعشرون : عضين : جمع (عضة) ، وهي الفرقة . الحدث : الحياة في هذه الدنيا . الحدث : القبر .

(٣) المقامة الثامنة والعشرون .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يفتح شهيتهم للطعام ، ويحرك فيهم رغائب البطن ، ويشعل أوارها ، ثم يتركونهم دون طعام أو شراب .

وقد صور البديع مثل هذه الأخلاق ، ففي المقامة (المجاعية) ، التقى (البطل) بجماعة من الأثرياء ، وطلب منهم مساعدة ، بعد أن بلغ الجوع منه مبلغا ، فسخر منه أحد الحاضرين ، وقال : "فما تقول في رغيف ، على خوان نظيف ، وبقل قطيف ، إلى خل ثقيف ، ولون لطيف ، إلى خردل حريف ، وشواء ضعيف ، إلى ملح خفيف ، يقدمه إليك الآن من لا يمطلك بوعد ، ولا يعذبك بصبر ، ثم يعلك بعد ذلك بأقداح ذهبية ، من راح عنبية ؟ أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة ، وأكواب مملوة ، وأنقال معددة ، وفرش منضدة ، وأنوار مجودة ، ومطرب مجيد ، له من الغزال عين وجيد[1]" .

ثم أمعن في السخرية منه والاستهزاء به فقال : "فإن لم ترد هذا ولا ذاك ، فما قولك في لحم طري ، وسمك نهري ، وباذنجان مقلي ، وراح قطربلي ، وتفاح جني ، ومضجع وطي ، على مكان عليٍّ ، حزاء نهر جرار ، وحوض ثرثار ، وجنة ذات أنهار؟[2]" ، وفي النهاية لم يقدم إليه شيئا . سوى أنه قد أثار شهوته للطعام والشراب .

وفي المقامة (النهيدية) يتلاعب (البطل) بشهوة ثلاثة أضياف ، لم يذوقوا الطعام منذ ثلاثة أيام ، فيعرض عليهم ألوانا عديدة من الطعام والشراب ، فقال : "فما رأيكم يا فتيان في نهيدة فرق كهامة الأصلع ، في جفنة روحاء ، مكللة بعجوة خيبر من أكتار جبار ربوض ، الواحدة منها تملأ الفم ، من جماعة خمص عطش خمس ، يغيب

---

(١) المقامة الخامسة والعشرون : الخوان : المائدة . اللون : نوع من التمر . الخردل : حب شجر معروف . حريف : لاذع . راح عنبية : خمر من العنب . أوساط محشوة : مواضع للطرب ملئت بأهلها .

(٢) المقامة السابقة : راح قطربلي : خمر منسوبة إلى قرية بالعراق شهيرة بالخمر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها الضرس ، كأن نواها ألسن الطير ، يجحفون فيها النهيدة ، مع أقعب قد احتلبن من الجلاد الهزمية الربلية ، أتشتهونها يا فتيان ؟" فقالوا : "أي والله نشتهيها ، فقهقه الشيخ وقال : وعمكم أيضا يشتهيها[1]".

وعرض عليهم ـ بالوصف ـ لونا آخر من الطعام ، فقال : "فما رأيكم يا فتيان في درمك كأنها قطع السبائك ، تجرثم على سفرة حرتية بها ريح القراظ ، فيثب إليها منكم فتى رفيف ، لبق خفيف ، فيعجنه من غير أن يرجفه أو يخشفه ، فيزيله دون ملك ناعم ، ثم يلته بالسمار أو المذق لتا غزيرا ، ثم يعمد إليه فيلويه ويدعه في ناحية الصيداء ، حتى إذا تخ من غير أن يترز عمد إلى قصد الغضا فأشعل فيه النار... أفتشتهونها يا فتيان؟ " .

فاشرأبت رؤوسهم من الوصف ، وتحلب ريقهم ، وتلمظوا وتمطقوا وقالوا : "إي والله نشتهيها . . . فقهقه الشيخ وقال : وعمكم والله لا يبغضها[2]".

ثم عرض عليهم من خلال وصفه لونا ثالثا من الطعام ، فقال : "ما رأيكم يا فتيان في عناق نجدية ، علوية برية ، قد أكلت البرم والشيح النجدي والقيصوم والهشيم، وتبرضت الحميم ، وتملأت من القصيص ، فوري مخها ، وزهمت كشيتها

---

(١) المقامة الرابعة والثلاثون . النهيدة : الزبدة . الفرق : القطيع العظيم من الغنم أو البقر . روحاء : متسعة . الأكتار : جمع (كتر) وهو السنام . ويراد منه عذق النخلة . الجبار : النخلة العظيمة . الربوض : الواسعة الأقطار. الخمص : الجياع . الخمس : الإبل التي تمنع ثلاثة أيام ثم ترد في الرابع . يجحفون : يفرقون . الأقعب : جمع (قعب) وهو وعاء اللبن . الجلاد : الإبل الكثيرات الدر . الهرمية الربلية : نسبة إلى الهرم ، وهي البقلة الحمقاء ، والربل : نسبة إلى الربل وهو ضرب من الشجر .

(٢) المقامة السابقة : درمك : لباب الدقيق . تجرثم : تجتمع . الحرتية : قطع الشيء مستديرا . القرظ : ثمر يدبغ به. رفيف : حسن الخلق . يرجفه : يحركه بعنف . يخشفه : يسيء صنعه . السمار : اللبن الحليب إذا خلط بالماء. المذق : اللبن الحامض . الصيداء : الأرض الغليظة . تخ : ظهرت فيه الحموضة . يترز : يبس ويشتد . قصد الغضا : أغصان شجر كثير اللهب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشحط معتبطة ، ثم تنكس في وطيس حتى تنضج من غير امتحاش أو إنهاء . . . فتوضع بينكم تهادر عرقا ، وتسايل مرقا ، أفتشتهونها يا فتيان ؟" قالوا : "إي والله نشتهيها ، قال : وعمكم والله يرقص لها[1]".

وتكشف المقامة (الوصية) مذهبا في حياة هؤلاء البخلاء ، ربما يكون قد شكل جزءا من فلسفة عصرهم ، فقد كان (البطل) بخيلا ، شديد الحرص على المال ، شديد التمسك به ، قليل الإنفاق ، لدرجة أنه يوصي ابنه وهو يجهزه للسفر بتجارته ، بالامتناع عن الأكل ، فإن لم يكن فبالإقلال منه ، فقال : "يا بني إني وإن وثقت بمتانة عقلك ، وطهارة أصلك ، فإني شفيق ، والشفيق سيئ الظن ، ولست آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم ، وليلك بالنوم ، إنه لبوس ظهارته الجوع ، وبطانته الهجوع ، وما لبسهما أسد إلا لانت ثورته ، أفهمتها يا ابن الخبيثة[2]".

ويحذره من الكرم بقوله : "فلا آمن عليك لصين : أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم ، فإياك وإياهما ، إن الكرم أسرع في المال من السوس ، وإن القرم أشأم من البسوس ، ودعني من قولهم (إن الله كريم) إنها خدعة الصبي عن اللبن ، بلى إن الله لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ، . . . فأما كرم لا يزيدك

---

(١) المقامة السابقة : العناق : الأنثى من المعز . علوبة : منسوبة إلى العالية وهي أرض بين نجد وتهامة . البرم : ثمر الأراك . القيصوم : نبات طيب الرائحة . تبرضته : شربت منه . القصيص : نبات يكون في أصل الكمأة . وري: كثر . زهم : سمن . الكشبة : الشحمة . تشحط : تذبح . معتبطة : بلا علة . الوطيس : التنور . الامتحاش : الاحتراق . الإنهاء : المبالغة في إنضاجها .

(٢) المقامة الواحدة والأربعون .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى ينقصني ، ولا يريشك حتى يبريني . فخذلان لا أقول عبقري ، ولكن بقري ، أفهمتها يا ابن المشؤومة[1]".

ويعبر البديع عن ثورته وتمرده على هذه الفئة بالطرق المقلوبة والوسائل غير المباشرة ، فيقول في وصية هذا التاجر لابنه ، في احتجاج مبطن بالسخرية والتهكم : "إنه المال عافاك الله ، فلا تنفقن إلا من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في الخل والبصل رخصة ما لم تذمهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحمك وما أراك تأكله ، والحلو طعام من لا يبالي على أي جنبيه يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبع داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج : خذ كل ما معهم ، واحفظ كل ما معك[2]".

أمر طبيعي أن يكون لبخلهم آثار اجتماعية سيئة ، ولا يعزب عن بال البديع أن يرصد حالة تمخضت عن هذا الخلق ، وعن هذه العلاقات الظالمة التي كانت تسود المجتمع ، وفرضت تلمس الرزق عن أية طريقة ، ولو اعتمدت على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) .

ففي المقامة (الأرمنية) اصطنع (البطل) ثلاث حيل عجيبة ، لكنها سيئة ، تمجها النفس ، وتتقزز منها ، ولا يقبلها الطبع السليم ، استغل فيها تعفف الناس ، ونفورهم من الأطعمة التي تأباها نفوسهم ، وظفر بها .

فقد أراد الظفر بخبز وجده "يطلع من ذات لظى ، تسجر بالغضا" ، فأعمل عقله في اصطناع حيلة يظفر بالخبز عن طريقها ، فعمد "إلى رجل فاستماحه كف ملح ،

---

(١) المقامة السابقة : القرم : شدة الشهوة إلى اللحم . يريش : يلزق عليه الريش . يبريني : ينحتني . البقري : الكذب والداهية .

(٢) المقامة السابقة : الوجبات : جمع (وجبة) ، وهي الأكلة الواحدة في اليوم والليلة . الفوت : الإعدام والفقر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال للخباز: أعرني رأس التنور، فإني مقرور، ولما فرغ سنامه جعل يحدث القوم بحاله، ويخبرهم باختلاله، وينشر الملح في التنور من تحت أذياله، يوهمهم أن أذى بثيابه، فقال الخباز: مالك لا أبا لك ؟! اجمع أذيالك، فقد أفسدت الخبز علينا، وقام إلى الرغفان فرماها[1]". وصار هو يلتقطها ويتأبطها، لعلمه أن ليس في الخبز ما يضر.

وفي حيلة أخرى، استطاع بذكائه أن يظفر بالأدم[2]، فذهب "إلى رجل صفف أواني نظيفة فيها ألوان الألبان، فسأله عن الأثمان، واستأذن في الدهو فقال: افعل، فأدار في الآنية إصبعه، كأنه يطلب شيئا ضيعه، ثم قال: ليس معي ثمنه، وهل لك رغبة في الحجامة ؟ فقال: قبحك الله ! أنت حجام ؟ قال: نعم فعمد لأعراضه يسبها، وإلى الآنية يصبها". فقال له: "آثرني على الشيطان، فقال: خذها لا بورك لك فيها[3]". فأخذها هو ومن معه، وأووا إلى خلوة وأكلوها.

وفي حيلة ثالثة، أراد أن ينال الطعام بطريقة سهلة ورخيصة، فأتى هو ومن معه قرية استطعموا أهلها، "فبادر من بين الجماعة فتى إلى منزله، فجاءنا بصحفة قد سد اللبن أنفاسها، حتى بلغ رأسها، فجعلنا نتحساها، حتى استوفيناها، وسألناهم الخبز، فأبوا إلا بالثمن، فقال الإسكندري: ما لكم تجودون باللبن، وتمنعون الخبز إلا بالثمن ؟ فقال الغلام: كان هذا اللبن في غضارة، وقد وقعت فيه فارة، فنحن نتصدق به على السيارة[4]".

---

(١) المقامة السادسة والثلاثون: الغضا: شجر إذا احترق دامت ناره طويلا. مقرور: أصابه القر، وهو البرد. فرع سنامه: صعد فجلس قريبا من رأسه.

(٢) الأدم: ما يؤكل مع الخبز.

(٣) المقامة السابقة.

(٤) المقامة السابقة: الصحفة: وعاء يوضع فيه اللبن. الغضارة: القصعة العظيمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرد الفتى الحيلة بالحيلة ، بعد أن شعر بخبث نواياهم ، "فقال الإسكندري : إنا لله ! واخذ الصحفة وكسرها . . . فاقشعرت منا الجلدة ، وانقلبت علينا المعدة ، ونفضنا ما كنا أكلناه(١)".

فهذه النماذج التي زرعها البديع في تلافيف مقاماته ، قد كشفت عن قضية كانت تشغل طائفة كبيرة من المجتمع ، بعد أن تردت الحياة الاجتماعية ترديا شنيعا، فقد بسط الفقر رواقه ، وخيمت ظلاله على سواد الشعب ، وشح القادرون بما لديهم ، واتسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء .

الأمر الذي اضطر كثيرا من الناس الذين ضاقت بهم سبل العيش ، وامتلأت نفوسهم سخطا ، وعضهم الجوع بنابه ، أن يبحثوا عن وسيلة للارتزاق ، تسد رمقهم ، وتحفظ عليهم حياتهم ، فتفننوا في اختراع الحيل ، وابتكار الأساليب التي تفك الأيدي المغلولة ، حتى تفيض عليهم بما أسبغه الله عليها من نعمة .

▫ اللصوصية والخداع :

مما يلفت النظر في القرن الرابع الهجري كثرة اللصوص وتعدد حيلهم ، وقد كشف البديع من خلال مقاماته عن أنواع كثيرة منها ، لانتشار السرقة ، واستفحال أمر قطاع الطرق في عصره ، وسواء أكان البديع مبالغا فيما ذكره من حيل أم غير مبالغ ، "فالذي لاشك فيه ، أن اللصوصية وقطع الطريق كانت ظاهرة عامة في تلك الأيام ، وكان لها كثير من الضحايا(٢)" ، ومنهم البديع نفسه ، فقد مر بتجربة حقيقية ، إذ داهمه اللصوص وسلبوا جميع ما معه ، وهو في طريقه إلى نيسابور(٣) .

---

(١) المقامة السابقة .

(٢) بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص٤٠١ .

(٣) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي . د. شوقي ضيف ص٢٤٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتكشف المقامة (الرصافية) عن نماذج نادرة من اللصوص ، فعدد البديع فيها ما يقرب من ثمانين صنفا منهم فذكر "أصحاب الفصوص ، من اللصوص ، وأهل الكف والقف ، ومن يعمل بالطف ، ومن يحتال في الصف ، ومن يخنق بالدف ، ومن يكمن في الرف ، إلى أن يمكن اللف ، ومن يبدل بالمسح ، ومن يأخذ بالمزح ، ومن يسرق بالنصح ، ومن يدعو إلى الصلح ، ومن قمش بالصرف ، ومن أنعس بالطرف ، ومن باهت بالنرد ، ومن غالط بالقرد ، ومن كابر بالريط ، مع الإبرة والخيط ، ومن جاءك بالقفل ، وشق الأرض من سفل (١)".

وعدد أنواعا أخرى ممن يستعملون حيلا غريبة كالذي "نوم بالبنج ، أو احتال بنيرنج ، ومن بدل نعليه ، ومن شد بحبليه ، ومن كابر بالسيف ، ومن يصعد في البير ، ومن سار مع العير ، وأصحاب العلامات ، ومن يأتي المقامات ، ومن فر من الطوف ،

---

(١) المقامة الثلاثون : أصحاب الفصوص : جماعة ينقشون أسماء بعض الناس على فصوص ، ثم يذهبون إلى ديارهم حال غيبتهم ، ويطلبون مالا ، ويجعلون الفص علامة لأهل الدار على أنهم موفدون من قبل صاحبها . أهل الكف : هم الذين يدخلون بين متشجارين ليكفوهم عن الشجار ، ويختلسون في هذه الأثناء أموالهم . وأهل القف : هم الذين يختلسون الأموال بين أصابعهم ، يعمل بالطف : يسرق بالتطفيف في الميزان . يحتال في الصف : يسرق من صفوف المصلين ، منتهزا اشتغالهم بالصلاة . يخنق بالدف : يدخل البيت للسرقة ، فإذا تعرض له رب البيت قتله ، ويكون معه جماعة يضربون بالطبول والدفوف ، حتى إذا صاح لا يسمعه أحد . يكمن في الرف : يختفي في مكان الأمتعة ، حتى يتمكن من جمعها , يبدل بالمسح : الذي يضع دراهم زائفة في فمه ، ثم يأخذ دراهم من آخر جيدة ، ويدنيها من فمه ليمسحها ، وهو في الواقع يستبدلها . يأخذ بالمزح : الذي يختلس الدراهم ، فإذا اكتشف قال إنه يمزح ، يسرق بالنصح : الذي يتظاهر بالنصح ثم يأخذ الأموال ويهرب . يدعو إلى الصلح : الذي يتدخل للصلح ثم ينتهز الفرصة ويسرق . قمش بالصرف : يجيء إلى الصيرفي لصرف دينار فيسرق الذي أمامه ويهرب . أنعس بالطرف : الذي يتناوم لينام صاحب المال ، فإذا نام أخذ ماله . باهت بالنرد : الذي يدخل الدار ليسرق ومعه نرد ، فإذا ضبط ادعى أنه يظلمه في اللعب . غالط بالقرد : الذي يسرق بقرد . جاء بالقفل : يبيع التاجر قفلاً سهل الفتح ، ثم يأتي ليفتحه ويسرق صاحبه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن لاذ من الخوف ، ومن طير بالطير ، ومن لاعب بالسير ، . . . ومن يسرق بالبول ، ومن ينتهز الهول ، ومن أطعم في السوق ، بما ينفخ في البوق (١)".

واستمر في ذكر أنواع من اللصوص وحيلهم ، وكأن لصوص اليوم على خطورتهم تلامذة صغار بالنسبة إليهم ، وهذا يكشف مقدار تعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مما مكن لفوارق الطبقات أن تنمو وتزداد ، فكثر الفقر المدقع ، في ظل الغنى المفرط ، إذ تعددت اللصوص ، وتنوعت حيلهم ، مما عبرت عنه المقامة أصدق تعبير.

وتطلعنا المقامة (الأسدية) على نوع من السرقة ، احترفها بعض فتيان الصحراء، الذين يخدعون بمظهرهم ، ويوقعون الفريسة في حبائلهم ، وقد تعرض (الراوي) لإحدى حيلهم ، فقال : التقيت وجماعة من المسافرين مع واحد منهم ، وقد وصلنا إلى فلاة "وهبطنا أرضها ، وسرنا حتى ضمرت المزاد ، ونفد الزاد أو كاد يدركه

---

(١) المقامة الثلاثون : نوم بالبنج : يعطي ضحيته مخدرا . احتال بنيرنج : احتال بالسحر . بدل نعليه : يدخل المسجد ومعه نعل خلق ، ويأخذ نعلين جديدين ويخرج . شد بحبليه : الذي يصعد سطحا ، ثم يربط المتاع بحبل قد ترك طرفه على الأرض ، ثم يشده من أسفل الدار . كابر بالسيف : وهم قطاع الطرق . يصعد في البير : الذي يختبئ في بئر ، فإذا ورده قوم ، وأدلى أحدهم دلوه ، صعد المختبئ فيه ، فيخافونه ويحسبونه من الجن ، فيتذرع بذلك إلى سرقتهم . سار مع العير : الذي يسير مع القافلة ويوهمهم أنه أحدهم ، حتى إذا انتهز فرصة سرقهم . أصحاب العلامات : الذين يجعلون لأنفسهم علامات كالمتصوفة وأمثالهم ، حتى يطمئن الناس لهم ، فإذا تمكنوا منهم سرقوهم . يأتي المقامات : الذي يلبس لباس العلية ليدخل البيوت من غير ممانعة فتتسنى له السرقة . فر من الطوف : الذي يهرب من رجال الشرطة . لاذ من الخوف : الذي يلجأ إليك ويحتمي بك خوفا من عدو، فإذا لاحت له فرصة انتهزها . طير بالطير : الذي يتخذ حماما يطيره ، ويدخل البيوت فإذا سأله أحد زعم أنه يبحث عنه . لاعب بالسير : الذي يلاعب ويداعب في إخفاء بعض الأشياء ، ثم تحدث منازعة فيتمكن من السرقة . يسرق بالبول : الذي يجلس بجانب المال ويكشف سوأته موهما أنه يبول ، فيحجل صاحب المال ويخفي وجهه فيتمكن اللص من السرقة . ينتهز الهول : الذي يسرق وقت الكارثة . ينفخ في البوق : ينادي بأنه يعالج الشهوة بدواء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النفاد ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده ، وقصدنا قصده (١)".

ويبدو الفتى لحظة ظهوره طوق نجاة للجماعة الموشكة على الهلاك ، وهو في ظاهره صورة للحسن ، فله "وجه يبرق برق العارض المتهلل ، وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل ، وعارض قد اخضر ، وشارب قد طر ، وساعد ملآن ، وقضيب ريان ، ونجار تركي ، وزي ملكي (٢)".

فخدعنا بمظهره ، واحتال علينا ، وتظاهر بأنه غلام هارب من خدمة سيده الملك لغلظته عليه ، "وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه ، وينطق فتفتننا ألفاظه (٣)".

فأنسنا إليه ، وخدعنا بصدق مقاله ، وعرض علينا خدماته وقال : "يا سادة إن في سفح الجبل عينا ، وقد ركبتم فلاة عوراء ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، وركب الجنادب الميدان ، فقال : ألا تقيلون في الظل الرحب ، على هذا الماء العذب ؟ فقلنا : أنت وذاك ، فنزل عن فرسه ، وحل منطقته ، ونحى قرطقته ، . . . وعمد إلى السروج فحطها ، وإلى الأفراس فحشها ، وإلى الأمكنة فرشها (٤)".

---

(١) المقامة السادسة : المزاد : قربة الماء . صمدنا : قصدنا .

(٢) المقامة السادسة . العارض : أصله السحاب المعترض في الأفق ، والعارض أيضا جانب الخد ، واخضرار العارض : ظهور الشعر فيه . طر الشارب : طلع جديدا . ساعد : الذراع . القضيب : عمود البدن . النجار : الأصل .

(٣) المقامة السابقة .

(٤) المقامة السابقة : فلاة عوراء : ليس فيها عين . الأعنة : جمع (عنان) وهو سير اللجام . صهرت : أحرقت . الجنادب : الجراد . المنطقة : حزام يشد به الوسط . القرطقة : نوع من اللباس . إلى الأفراس حشها : وضع لها الحشيش .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاطمأنت إليه نفوسنا ، ومالت إليه قلوبنا ، "وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه ، فقلت يا فتى ما ألطفك في الخدمة ، وأحسنك في الجملة ، فالويل لمن فارقته ، وطوبى لمن رافقته ، فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ فقال : ما سترونه مني أكثر ، أتعجبكم خفتي في الخدمة ، وحسني في الجملة ؟ فكيف لو رأيتموني في الرفقة ؟ أريكم من حذقي طرفا ، لتزدادوا بي شغفا ، فقلنا : هات[1]".

وخدعنا بحيلة لم نكن نتوقعها ، "فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره ، وفوق سهما فرماه في السماء ، وأتبعه بآخر فشقه في الهواء ، وقال : سأريكم نوعا آخر ، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها ، وإلى فرسي فعلاه ، ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره ، وآخر طيره من ظهره ، فقلت : ويحك ما تصنع ؟ قال : اسكت يا لكع ، والله ليشدن كل منكم يد رفيقه ، أو لأغصنه بريقه ، فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطة ، وأسلحتنا بعيدة ، وهو راكب ونحن رجالة ، والقوس في يده يرشق بها الظهور ، ويمشق بها البطون والصدور[2]".

وهكذا وضع يده على أفراسنا ، وجردنا من أسلحتنا ، واستولى على أموالنا ، وقتل بعضنا ، وساق الباقين أمامه كالقطيع .

وفكرة اللصوصية في هذه المقامات :لم تأت اعتباطا ، وإنما جاءت بناء على تجربة مر بها بديع الزمان ، ومر بها معاصروه ، فلصوص الصحراء في ذلك الوقت كانوا منتشرين ، ومعروف أن المتنبي معاصر الهمذاني قد قتله لصوص الصحراء[3]".

---

(١) المقامة السابقة .

(٢) المقامة السادسة . أوتر القوس : جعل لها وترا . فوق السهم : سدده . الكنانة : جعبة تجعل فيها السهام . ويح : كلمة تقال في الدعاء بالثبور والهلاك . اللكع : اللئيم الأحمق . يغص بريقه : كناية عن إزهاق نفسه .

(٣) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن ص٢٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي المقامة (البغدادية) يتيح البديع لـ(عيسى بن هشام)، أن يصور بعضا من شرور المجتمع وآثامه ومباذله، في نفوس استخفها البؤس، إلى الاستهتار الآسي، والخداع المرير، وهذا التصوير على سبيل الاعتبار، لا إغراء بالاستهتار.

ومن خلالها نبه البديع على نوع من الاحتيال، يقع فيه بسطاء الناس، وسذج الأرياف من غدر وخداع واحتيال، فأورد مأساة واحد من هؤلاء البسطاء، إذ سافر إلى الحضر، ووقع فريسة لاحتيال (عيسى بن هشام)، الذي قلد (أبا الفتح) في هذا المسلك، معتمدا على ذكائه المتوقد، وتفرسه المتوهج.

فيحكي (عيسى) مغامرته مع القروي، فيقول: "اشتهيت الأزاذ، وأنا ببغداد، وليس معي عقد، على نقد، فخرجت انتهز محاله حتى أحلني الكرخ، فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره، فقلت: ظفرنا والله بصيد، وحياك الله أبا زيد، من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ وهلم إلى البيت، فقال السوادي: لست بأبي زيد، ولكني أبو عبيد، فقلت: نعم، لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان، أنسانيك طول العهد، واتصال البعد، فكيف حال أبيك؟ أشاب كعهدي، أم شاب بعدي؟ فقال: قد نبت الربيع على دمنته، وأرجو أن يصيره الله إلى جنته(١)".

وبعد أن خدع السوادي في اسمه، واسم أبيه، ومعرفته به التي ادعاها، لكي يقوم ـ كما زعم ـ باستضافته، وهو في الحقيقة إنما يضيف نفسه، قال له: "هلم إلى

---

(١) المقامة الثانية عشرة: الأزاذ: نوع من التمر الجيد. انتهز: أتلمس وأقصد. الكرخ: محل ببغداد. السوادي: رجل من ريف العراق وقراه. يطرف إزاره: يرد أحد طرفي الإزار على الآخر. الربيع: النبات. الدمنة: القبر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيت نصب غداء ، أو إلى السوق نشتر شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب ، فاستفزته حمة القرم ، وعطفته عاطفة اللقم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع[1]" .

ولسذاجة القروي وغفلته ، أو لسوء نيته وطويته ، ظن أنه مدعو على مائدة الصديق الصدوق ، فلم يعارض في كثرة المشترى من الطعام الفاخر بالثمن الموجع ، ولم يعلم أنه الغارم في النهاية ، وسيدفع الثمن باهظا .

وأنس (عيسى) واطمأن إلى قبول السوادي الدعوة ، وأن الحيلة قد جازت عليه ، فقال : "ثم أتينا شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، وتتسايل جوذاباته مرقا ، فقلت : افرز لأبي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الأطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ، ورش عليه شيئا من ماء السماق ، ليأكله أبو زيد هنيا . . . ثم جلس وجلست ، ولا يئس ولا يئست ، حتى استوفينا ، وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوق ، وأمضى في العروق ، . . . ليأكله أبو زيد هنيا ، قال : فوزنه ، ثم قعد وقعدت ، وجرد وجردت ، حتى استوفيناه[2]" .

وبعد أن حقق (عيسى) مأربه ، فكر في الهروب ، ليترك السوادي الغافل ، ليلقى مصيره المجهول ، وكأنه بذلك يسخر من هؤلاء الذين لا يفكرون ، ويلقي تبعة غفلتهم على من فرضها عليهم ، ولم يتح لهم فرص التحضر وإضاءة العقل ، فقال له : "يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ، ليقمع هذه الصارة ، ويفثأ هذه اللقم الحارة ،

---

(١) المقامة الثانية عشرة . استفزته : استهوته . الحمة : إبرة العقرب ، ثم أطلقت على الشدة . القرم : شدة الشهوة إلى أكل اللحم . اللقم : السرعة في الأكل .

(٢) المقامة السابقة : الجوذابه : طعام يصنع من لحم وخبز . نضد الأوراق : صنعها بعضا فوق بعض . السماق : حب صغير أحمر حامض ، وهو من المشهيات . اللوزينج : نوع من الحلوى .

اجلس يا أبا زيد حتى نأتيك بسقاء ، يأتيك بشربة ماء ، ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني ، انظر ما يصنع[1]".

فلما استبطأه السوادي ، هم بالانصراف ، وقام إلى حماره ، معتقدا أنه ضيف ، "فاعتلق الشواء بإزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفا ، فلكمه لكمة ، وثني عليه بلطمة ، ثم قال الشواء : هاك ، ومتى دعوناك ؟ زن يا أخا القحة عشرين ، فجعل السوادي يبكي ويحل عقده بأسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد[2]".

وهكذا تبدو القيمة الاجتماعية للمقامات ، من خلال مشاركتها للحياة العامة ، وتصويرها لجانب مهم منها ، يمس المجتمع كله ، فقد كان عصرها فاقدا لكل توازن اجتماعي ، إذ كانت الحياة العامة مليئة بأصناف من اللصوص ، الذين يظهرون في سمات مختلفة ويتحايلون على الفريسة حتى ينالوا منها .

ولقد عبر البديع عن امتعاضه من هذه الجوانب السلبية في مجتمعه بطريقته الخاصة ، ومبالغاته الطريفة ، وتصويراته الجميلة ، تعبيرا عميقا ، تصبغه اللوعة وحرارة المشاعر ، وهذا يعني أنه عاصر ظروفا اجتماعية متردية ، وبخاصة بالنسبة للطبقات الدنيا ، بعد أن ساءت الأوضاع الاقتصادية وتزعزع الأمن ، وبدأ الناس يشعرون بالتمزق والضياع .

▫ الثرثرة والجدال :

يعرض بديع الزمان من خلال إحدى مقاماته مرضا اجتماعيا ، عرف به مجتمعه ، فصور رجلا ثرثارا مملا ، لم يترك فرصة لضيفه ليبادله الحوار ، وهذه الصفة

---

(١) المقامة السابقة : يشعشع : يخلط . يقمع : يقهر . الصارة : شدة الحر . يفثأ : يكسر ويخفف .

(٢) المقامة الثانية عشرة : القحة : الوقاحة وسوء الأدب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بـالمجتمع الفارسـي أليـق ، "فالشـعب الفارسـي مشـهور بـالثرثرة ، كمـا يصفـه المستشرقون، ويزيد البعض في ذلك ويبالغ ، فيقول مازحا : إن الأعداد تبدأ عند الفرس من عشرة آلاف[1]".

ففـي المقامـة (المضيريـة) تصويـر لـثرثرة رجـل دعـا (أبـا الفتـح) إلى أكلـة (مضيرة)[2] ، ثم أخذ يثرثر ثرثرة طويلة ، ممعنة في الطول ، ثقيلة ممعنة في الثقل ، يصف فيها زوجته وجمالها وطاعتها وبراعتها في الطهي ، ثم داره وكيف اشتراها ، وحيطانها وحصيرها ، والنجار الذي صنع أخشابها ، والخوان ، وندرة وجوده ، والغلام، والطشت ، والإبريق ، والماء الذي به ، . . . إلى غير ذلك من الأمور.

فتحدث عن زوجته وقال : "يا مولاي لو رأيتها ، والخرقة في وسطها . وهي تدور في الدور ، من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته ، ولاسيما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لحا ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها أرومتي ، لكنها أوسع مني خلقا ، وأحسن خلقا[3]".

ثم انتقل إلى وصف داره ، مستطردا ثرثرته ، فقال : "يا مولاي ترى هذه المحلة ؟ هي أشرف محال بغداد ، يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، وداري في السطة من قلادتها ، والنقطة من

---

(١) بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص٣٦٧ .

(٢) المضيرة : نوع من الطعام ، يتخذ من اللحم واللبن الحامض .

(٣) المقامة الثانية والعشرون . الخرقة : لباس يجعله الطاهي فوق صدره . تنفث : تنفخ . الأبزار : ما يوضع على الطعام لتمليح طعمه ، وإعطائه نكهة . الخد الصقيل : المجلو النظيف . لحا : قرابة متصلة . الأرومة : الأصل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دائرتها ، كم تقدر يا مولاي أنفق على كل دار منها ؟ قله تخمينا ، إن لم تعرفه يقينا ، قلت الكثير ، فقال : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ؟ وتنفس الصعداء ، وقال : سبحان من يعلم الأشياء(١)".

كل هذه الثرثرة ، وهما لم يصلا بعد إلى الدار ، فإذا ما وصلا إليها ، استمر المضيف في وصفها قائلا : "هذه داري ، كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة ؟ أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حسن تعريجها ، فكأنما خط بالبركار(٢)".

حتى النجار ، الذي صنع أبوابها ونوافذها ، كان له نصيب وافر من الثرثرة ، فقال عنه : "وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم ، هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن ، إذا حرك أن ، وإذا نقرطن ، من اتخذه يا سيدي ؟ اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصري ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل ، لله در ذلك الرجل ! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله(٣)".

واستمر المضيف الثرثار يفصل تاريخ كل شيء في داره ، فوصف حلقة الباب بقوله : "وهذه الحلقة تراها اشتريتها في سوق الطرائف من (عمران الطرائفي) بثلاثة دنانير معزية ، وكم فيها يا سيدي من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في

---

(١) المقامة السابقة . السطة : الوسط .

(٢) المقامة الثانية والعشرون . الطاقة : النافذة . البركار : آلة لتحديد الدوائر .

(٣) المقامة السابقة . من كم : من كم قطعة صنع النجار هذا الباب . الساج : شجر طويل جدا . مأروض : أكلته الأرضة . العفن : الذي أصابته الرطوبة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب ، بالله دورها ، ثم انقرها وأبصرها ، وبحياتي لا اشتريت الحلق إلا منه ، فليس يبيع إلا الأعلاق(١)".

وهذا الحصير قد اشتريته "في المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، . . . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعته ولونه ، فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر ، وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله ، وله ابن يخلفه الآن في حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه(٢)".

واطلعه على الخوان ، وقال له : "تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عرض متنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله(٣)".

ووصف غلامه بأنه : "رومي الأصل ، عراقي النشء ، تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك(٤)".

وكان الغلام يحمل منديلا وإبريقا ، فوصف المنديل بقوله : "وهذا المنديل سلني عن قصته ، فهو نسج جرجان ، وعمل أرجان ، ووقع إليّ فاشتريته ، فاتخذت امرأتي بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته إلى المطرز حتى صنعة كما تراه وطرزه ، ثم رددته

---

(١) المقامة السابقة . الحلقة : ما يدق بها عند الاستفتاح . الدنانير المعزية : المنسوبة إلى المعز لدين الله الفاطمي . الشبه : النحاس الأصفر .

(٢) المقامة السابقة . المناداة : المزاد .

(٣) المقامة السابقة .

(٤) المقامة الثانية والعشرون . احسر : اكشف . انض : انزع . افتر : اضحك .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادخرته للظراف من الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها[١]".

ووصف الإبريق بقوله : "انظر إلى هذا الشبه ، كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شبه الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها ، تأمل حسنه وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة[٢]".

حتى الماء الذي في الإبريق لم يسلم منه ، فوصفه بأنه : "أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور ، استقى من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة[٣]".

واستمر المضيف في ثرثرته المملة ، حتى فكر الضيف في وسيلة يهرب بها ، فاحتج بحاجة يقضيها ، ليفر منه إلى الكنيف ، إلا أنه لم يتخل عن ثرثرته ، فوصف الكنيف بأنه "يزري بربيعي الأمير ، وخريفي الوزير ، قد جصص أعلاه وصهرج أسفله ، وسطح سقفه ، وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غيرانه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه[٤]".

---

(١) المقامة السابقة . المآقي : جمع (مؤق) ، وهو مؤخر العين ، مما يلي الأنف .

(٢) المقامة السابقة . خلقان : جمع (خلق) وهو البالي . والأعلاق : جمع (علق) وهو النفيس .

(٣) المقامة السابقة . السنور : القط .

(٤) المقامة السابقة . الربيعي : المكان الذي يتخذ للإقامة فيه أثناء الربيع . خريفي : المكان الذي يتخذ لزمن الخريف . جصص : طلي بالجص وهو الجير . صهرج : طلي . الذر : جمع (ذرة) وهي أصغر النمل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حينئذ ، ضاق ذرع الضيف ، ونفذ حلمه ، وجرى نحو الباب ، وهو يقول : "كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب[1]".

وهكذا استطاع البديع أن يرسم صورة منفرة لشخصية (التاجر) ، إنه ليس فقط ثرثارا مستبدا ، بل مستغل محتال ، يتضح ذلك من طريقة احتياله في حصوله على الدار والعقد والحصير[2] ، إلا أن احتياله قد اصطبغ بطبيعة شخصيته المستبدة والمستغلة ، فهو احتيال يختلف أيما اختلاف عن احتيال (أبي الفتح) ، الذي يرتدي حلة من الظرف والفكاهة .

ومن الأمور التي طرقها البديع ـ أيضا ـ في مقاماته ، الكلام والحجاج في المذاهب الدينية ، بعد أن شاعت الخلافات القائمة بين الفرق الكلامية آنذاك ، وانقسم العلماء إلى فرق ، وأصحاب كل فرقة يدافعون عن آرائهم وأفكارهم ، ويهتمون بتفنيد آراء غيرهم ، ويقيمون الحجة على فساد مذهب خصومهم .

ويظهر هذا في المقامة (المارستانية) ، فقد دخل (عيسى بن هشام) مارستانا ، ومعه أبو داود المعتزلي ، فرأيا مجنونا (أبو الفتح) ، ومنذ أن عرفهما ، صب جام غضبه على المعتزلة ، مسفها أهم أسس مذهبهم ، متعرضا لمشكلات خلق الأفعال ، وحسية النعيم والجحيم ، وعذاب القبر ، والمجاز في القرآن ، وقدم الكلام الإلهي وحدوثه ، وغير ذلك . . .

فعن مشكلة خلق الأفعال قال : "إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم ـ يا مجوس هذه الأمة ـ تعيشون جبرا ، وتموتون صبرا ، وتساقون إلى المقدور

---

(١) المقامة الثانية والعشرون .

(٢) انظر : المقامة السابقة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قهرا ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، أفلا تنصفون[1]".

وقد أدلتهم بقوله : "إن كان الأمر كما تصفون ، وتقولون خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون : خالق الهُلك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبث من إبليس دينا ، قال : رب بما أغويتني ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم ، وتقولون خُيِّر فاختار ، وكلا فإن المختار لا يبعج بطنه ، ولا يفقأ عينه ، ولا يرمي من حالق ابنه ، فهل الإكراه إلا ما تراه ؟ والإكراه مرة بالمرة ، ومرة بالدرة ، فليخزكم أن القرآن بغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم، إذا سمعتم (من يضلل الله فلا هادي له) ألحدتم[2]".

وعن موقفهم من عذاب القبر ، والصراط ، والميزان ، وكلام الله ، قال : "وإن قيل (عذاب القبر) تطيرتم ، وإن قيل (الصراط) تغامزتم ، وإن ذكر (الميزان) قلتم من الفرغ كفتاه ، وإن ذكر (الكتاب) قلتم من القد دفتاه[3]".

يبدو المتحدث منتصرا لمقولات أهل السنة ، ويبدو ـ أيضا ـ أن البديع مناصر لموقف (المجنون)[4] ، حيث أفردت لحديثه المقالة ، ولم يتح للمعتزلي أن يمارس الخطاب النقيض دفاعا عن نفسه ، ومذهبه ، بل كان رد فعله أنه بهت فلم يحر جوابا .

---

(١) المقامة الرابعة والعشرون .

(٢) المقامة الرابعة والعشرون . بعج بطنه : شقها . حالق : مرتفع . المرة : العقل . الدرة : العصا .

(٣) المقامة السابقة . الفرغ : الفراغ . القد : الجلد .

(٤) ذهب الدكتور مصطفى الشكعة إلى أن بديع الزمان سني المذهب . انظر : كتابه بديع الزمان الهمذاني . ص٣٥٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن هذا التصور سرعان ما يهتز بشدة ، حينما نكتشف أن المجنون (أبا الفتح) يصف نفسه بعد هجومه العنيف على المعتزلي ، بأنه بلغ القمة في ممارسة الحق ، وفي ممارسة الباطل بقوله :

أنا ينبوع العجائب ... في احتيالي ذو مراتب
أنا في الحق سنام ... أن في الباطل غارب
أغتدي في الدير قسيسا ... وفي المسجد راهب (١)

وكأن البديع أراد بذلك نفي تعصبه لإحدى الفرقتين ، وربما يرجح هذا النفي ، ما جاء في المقامة (النيسابورية) ، أن (أبا الفتح) مثلما صب جام غضبه على (أبي داود) المعتزلي ، فقد صبه أيضا على رجل "قد لبس دنية ، وتحنك سنية (٢)" ، والمعروف أن (السنية) هي العمامة المميزة لأهل السنة (٣) .

والبديع لم يسئه الفحش في سب ذلك السنيّ ، إذ وصفه (أبو الفتح) بأنه "سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردي لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ، وقد لبس دنيته ، وخلع دينيته ، وسوى طيلسانه ، وحرف يده ولسانه ، وقصر سباله ، وأطال

---

(١) المقامة الرابعة والعشرون .

(٢) المقامة التاسعة والثلاثون . الدنية : قلنسوة طويلة يلبسها القضاة . تحنك : جعل العمامة تدور من تحت حنكه . سنية : منسوبة لأهل السنة .

(٣) انظر : شرح المقامات للشيخ محمد عبده ، وشرح محمد محي الدين عبد الحميد .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حباله ، وأبدى شقاشقه ، وغطى مخارقه ، وبيض لحيته ، وسود صحيفته ، وأظهر ورعه ، وستر طمعه(١)".

فنلاحظ أنه لا اعتراض على سب ، سواء أكان لمعتزلي أم لسني ، ولكن استسلام لسحر بيان الإسكندري ، وكأن (البديع) يرى أن أساس الخلافات القائمة بين الفرق الكلامية في عصره كامن في القدرة البيانية ، واللسن والفصاحة ، وطرح الحجج ، ويرى أيضا أن هؤلاء الذين يهتمون بالجدل في علم الكلام ، ولا يفقهون قولا ، ولا يحسنون رأيا ، هم مجنونون ، وفي ذلك منتهى النيل منهم ، والإزراء بأقوالهم ، والتهكم بأفكارهم ، والحط من شأنهم .

على هذا النحو من التفنن ، أجاد بديع الزمان الهمذاني رسم صورة واضحة للمجتمع في عصره ، فقد كان ـ رحمه الله ـ ذا رسالة تستهدف معنى إنسانيا نبيلا ، ولعل هذا هو سر خلودها ، فكل أدب لا يستهدف الفضيلة هو أدب عاجز مريض ، لا يمكن أن يكتب له الخلود .

والوسيلة التي اتبعها (البديع) في الكشف عن معايب ومثالب عصره ، تعد من أعقد ألوان التعبير ، وأعسرها ، وتحتاج من الأديب طبعا مواتيا ، وخيالا خصبا ، وبراعة خالقة ، حتى يتمكن من جمع أشتات من الصفات المتفرقة بين الأفراد ، فذكرها في شخصية واحدة ، تعلن مقاومتها لمحيط القيم والمعايير الاجتماعية السائدة .

---

(١) المقامة التاسعة والثلاثون . الأكراد : جيل من الناس معروفون بنذالة طبعهم ، ودناءة نفوسهم . دينيته : صفته الدينية . الطيلسان : لباس أخضر يلبسه الخواص من النساك . السبال : الشارب . حباله : شباكه التي يصيد بها الناس . الشقاشق : جمع (شقشقة) ، وهي في الأصل ما يخرجه البعير من فيه إذا هاج ، ثم أطلق على ذرابة اللسان . مخارقه : تمويهه وكذبه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو حين يصور تلك الشخصية "لا يسعى إلى الإغراء بها، والتشجيع على احتوائها، وإنما يسعى إلى الكشف عن بؤس الإنسان، ومواطن تحلل الإنسانية، تنبيها على خطورتها، وإيحاء باتخاذ موقف حيالها..."(١).

ومن هنا فإن "كثيرا من النقاد والدارسين، يتحامون مبدأ التعاطف مع المقامات، تلك هي أن المقامات تكرس (في الظاهر) مناطق الهبوط السلوكي والفكري...

وصحيح أن الشر، والجريمة، والجنس، والتكدي، والاحتيال، والتدليس، والانحلال إنما يتم تجسيدها في المقامات، ولكن الصحيح كذلك، أن يتم من خلال حس ساخر مقزز، يفضي في النهاية إلى رفض هذه السلوكيات، وليس إلى التصفيق لها(٢)".

فللبديع - بلا شك - غاية خلقية، لم يصرح بها تصريحا مباشرا، وإنما يلمح إليها تلميحا، "ومن هنا يمكن أن نفهم بسهولة، أن غناء المقامات لألوان الشر إنما هو ثورة روحية مزلزلة، تعاظمت البوح الإفضائي المطرد، وآثرت أن تتبدى من هذا الرمز المقنع، وأن تقدم صاحبها ضحية لكثير من الفهم الساذج(٣)".

---

(١) النموذج الإنساني في أدب المقامة، د. علي عبد المنعم عبد الحميد، ص١٠.

(٢) المقامات: هذا النوع الأدبي ـ مقال الدكتور/ محمد أحمد الغرب ـ مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد السادس عشر ج١ (١٤١٧/١٩٩٧م) ص٣٢.

(٣) السابق ص٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

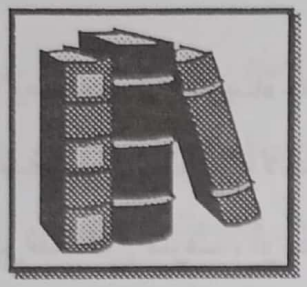

المبحث الرابع
البناء الفني للمقامة الاجتماعية

==========

تعتبر مقامات بديع الزمان الهمذاني سجلا لأحوال الحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري ، بما تصوره لنا من أخلاق الناس ، وأحوال العصر ، ومفاسد المجتمع ، لم تكن لتظهر لنا بهذا الوضوح ، لولا أن دبجتها براعة البديع ، ووسعتها اطلاعه الواسع على الشئون العامة ، وقدرته الفذة على التغلغل بين الفئات الاجتماعية آنذاك .

ولا شك أن تقدير الأهمية الاجتماعية للأديب من ناحية محتوى أدبه أو مضمونه ، يتوقف على النظر إلى تراث الأديب نظرة تطورية تاريخية شاملة في ضوء الحياة الاجتماعية بالنسبة لعصره ومجتمعه .

وهذا يستلزم الاهتمام بالتناقضات الاجتماعية الكبرى الشائعة أثناء تلك الفترة، للكشف عن مدى تغلغل الأديب ـ المقصود بالدراسة ـ في أعماقها ، ومدى انعكاس ، ذلك التغلغل في أدبه ، بشكل واضح أو ضمني .

وكذا الكشف عن نزعته العامة ، وخصائصه الاجتماعية ، ومدى نضجه الفكري ، وحرارة مشاعره وعمقها ، ومهارته الأدبية ، وأصالته الفنية ، ودقة الأحكام التي يطلقها على الأحداث والناس ، وعمق الاستنباطات الاجتماعية التي يتوصل إليها[1] .

---

(١) انظر : مع الحريري في مقاماته . د. نوري جعفر . دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة (العراق) العدد (١٩٠) ص٢٢،٢٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومعلوم "أن الحياة الاجتماعية مرتبطة إلى حد كبير بالحياتين السياسية والأدبية ، بل إن الحياة الاجتماعية تنعكس دائما على أدب العصر ، وتتفاعل معه ، فيظهر لنا نتاج مترف ، أو خليع ، أو وقور ، أو قلق ، كل ذلك نتيجة للحياة التي يحياها الشعب ، والاحساسات التي تحسها الأمة ، والتأثيرات التي يتأثر بها الناس (١)".

والحياة الاجتماعية انعكاس لما في المجتمع من تقدم أو تخلف في الاقتصاد ، والمتأمل في انعكاسات أو آثار هذا الوضع الاقتصادي في الشكل الأدبي ، يلمس مدى الارتباط بين الشكل الأدبي ، والهيكل الاقتصادي ، وهذه الرؤية لا تعني أن الأدب يعكس الوضع الاقتصادي عكسا آليا ، بل هو اجتهاد في تصوير العلاقة والأثر.

من هذا الارتباط نرى أن فساد الحياة في القرن الرابع الهجري ، الذي جر إليه سوء الحالة الاقتصادية ، وعدم التوازن الاجتماعي ، والإفراط في البؤس بجانب الإفراط في الترف ، قد انعكست صورته على الأدب ، فأخرج المقامات (٢)".

ولهذا فإن البديع قد حرص على أن يضفي على مقاماته من روح العصر ، مما جعلها وثائق تاريخية بالغة القيمة ، لدراسة الحياة الاجتماعية ، وإذا كان قد اهتم بأسلوب مقاماته ، ليعلن عن تمكنه اللغوي ، ومقدرته التعبيرية ، فإنه قد جعل المضمون هو الغاية ، ليعلن أيضا عن تمكنه من المجتمع ، وتغلغله بين طبقاته ، واطلاعه على ما يغص به من عيوب ، وما يقوم عليه من أخطاء ، في محاولة لإبرازها في صورة تنفر منها صاحب الخلق السوي ، بما يضفيه عليها من السخرية اللاذعة ، التي أبرزتها عباراته الفكهة ، وأصباغه البديعية ، وصوره الفنية المرسومة بتمكن واقتدار.

---

(١) بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص٢٢ .

(٢) ظهر الإسلام . أحمد أمين ج١ ص١٤٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإدراكا منه لمدى صعوبة هذا القالب على الذوق العام ، وحرصا منه على أن يجتذب إلى قرائه أكثر عدد ممكن من أبناء العربية ، صب في هذه القوالب الجافة الجامدة طائفة من النوادر والطرائف ، أجراها على لسان وسلوك بطله أبي الفتح الإسكندري ، الذي قدمه في كل مقاماته في صورة أديب متسول ، يتنكر في صورة مختلفة ، ليحصل على ما يريد ، وفي سبيله إلى ذلك جعل من هذا البطل المحتال بليغا ذا منطق أخاذ ، وبديهة سريعة .

ورغم شيوع الفكاهة في كتابات البديع ، إلا أنه لم يكن "لاهيا أو عابثا في مقاماته ، وإنما كان ذا رسالة نحو مجتمعه ، إذ عالج من خلالها كثيرا من مشكلات المجتمع وقضاياه ، ورسم صورة للمظالم التي كان يعانيها المجتمع في عصره ، وهو في ذلك ينبه إلى مواطن الخلل ، ومواطن الداء[1]" .

"والحياة الاجتماعية ، وأحوال الناس ، يكاد يلمسها الإنسان في أكثر مقامات البديع ، ممثلة في الأعمال المختلفة ، التي كان يأتيها أبو الفتح الإسكندري المكتدي ، الذي كان يتخذ في كل مقامة شكلا ، ويلبس لكل حال ثوبا خاصا ، يصور لنا فيه أعمال المكدين وحيلهم واحتيالهم في أشكال مختلفة ، ورسوم متباينة ، وليس أبو الفتح الإسكندري في الواقع إلا صورة من أهل ذلك العصر[2]" .

ومن خلال هذه المقامات "يظهر لنا مقدار تعقد الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، تعقيدا مكن لفوارق الطبقات أن تنموا وتزداد ، فكثر

---

(١) المقامات الهمذانية (دراسة ونقدا) مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ص٥١٣، ٥١٤ .

(٢) بديع الزمان الهمذاني . د. مصطفى الشكعة ص٣٨٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفقر المدقع في ظل الغنى المفرط ، فوجدت طبقة اللصوص والمكدين والشحاذين مما عبرت عنه هذه المقامات أصدق تعبير ، وهنا تبرز لنا الفائدة العملية للمقامات[1]".

ولقد كان البديع أديبا ملتزما من الناحيتين الاجتماعية والفنية ، أي أنه ملتزم من ناحية محتوى أدبه ، ومن ناحية أسلوب التعبير.

فقد كان ملتزما من حيث المحتوى الاجتماعي ، بمبدأ العدالة الاجتماعية ، وملتزما - أيضا - باستهجانه الظلم والاضطهاد ، وكان ملتزما أيضا برفض كل ما هو قبيح وناب في حياة الأفراد ، وفي ارتباطاتهم الاجتماعية ، وقد ظهر ذلك كله بأجلى صورة في مواقف أبي الفتح الإسكندري ، وعيسى بن هشام .

وكان ملتزما من ناحية التعبير ، بكل ما هو أنيق وجميل من حيث الألفاظ الموحية والمنتقاة ، ومن ناحية انتظامها في العبارات والفقرات . . .

فقد وضع البديع كثيرا من مقاماته في شكل حوار قصصي ، وهو حوار يمتد بين عيسى بن هشام (الراوي) ، وأبي الفتح الإسكندري ، الأديب المحتال ، الذي يعرف كيف يلعب بعقول الناس ، والحوار يأتي هامشيا، وسط مجاميع من الألفاظ والأساليب التي تخلب السامعين ، وتخترق بروعتها حجاب قلوبهم .

ومن أجل ذلك ، اختار صيغة السجع لمقاماته ، وكانت هي الصيغة التي يعجب بها عصره ، أعجب بها عند ابن العميد في رسائله ، كما أعجب بها عند غيره من تلاميذه ، فكان لابد للبديع كي ينال استحسان معاصريه ، من أن يعتمد اعتمادا على هذه الوسيلة ، ويستخدمها في كل ما ينمق من مقامات ، ومع ذلك كان سجعه في

---

(١) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن ص١٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جملته خفيفا رشيقا ، فليس فيه تكلف ولا جفاء ، فهو دائما كأنما يستمد من فيض لغوي لا ينفد(١) .

ولم يستطع البديع أن يفلت من تأثير لغة عصره المسجوعة إلا قليلا ، وتظهر بوضوح نبرة السجع وإيقاعه متناغما في الدفقة الشعورية ، وذلك عندما يصور رؤيته ، ويجسد شعوره تجاه المثير الاجتماعي ، كقوله في المقامة (الدينارية) ، على لسان أبي الفتح الإسكندري ، في مباراة سب وشتم للفوز بدينار : "يا برد العجوز ، يا كربة تموز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ، يا حديث المغنين ، يا سنة البوس ، يا كوكب النحوس ، يا وطأ الكابوس ، يا تخمة الرءوس ، يا أم حبين ، يا رمد العين ، يا غداة البين ، يا فراق المحبين ، يا ساعة الحين ، يا مقتل الحسين ، يا ثقل الدين ، يا سمة الشين . . .(٢)" .

بينما يفلت من قيود السجع ، عندما يخاطب العقل ، فيعتمد حينئذ على عنصر الإقناع ، ومن ثم يتحرر ولو جزئيا من السجع ، كقوله في المقامة (الإبليسية) : "أضللت إبلا لي ، فخرجت في طلبها ، بواد خضر . . . وإذا شيخ جالس ، فراعني منه ما يروع الوحيد من مثله ، فقال : لا بأس عليك ، فسلمت عليه ، وأمر بي بالجلوس فامتثلت ، وسألني عن حالي فأخبرت(٣)" ، وهو بذلك ينزع إلى التحرر من إسار اللفظية الشكلية ، حتى يعطي لأسلوبه حرية التدفق مع الفكرة المطروحة .

وفضل الهمذاني يكمن في أنه استطاع أن يصور داخل اللغة التقليدية المسجوعة فكره الاجتماعي ، وهذه خطوة إلى الأمام ، وفي هذا محاولة للرد "على المقولة الجاهزة

---

(١) انظر : المقامة د. شوقي ضيف ص٣٢، ٣٣ .

(٢) المقامة الثالثة والأربعون .

(٣) المقامة الخامسة والثلاثون .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تزعم أن لكل مجال مقالا ، وأن لكل مناسبة ظرفها القولي المحدد والمتوارث ، فآثر هو أن يبطل هذا الزعم ، وأن يؤكد طواعية اللغة لكل الأغراض متى حسن توظيفها واستنطاقها(١)".

والبديع في اللغة وفي اختيار مفرداتها ، لم ينظر إليها بوصفها غاية في حد ذاتها ، بأن تكون معرضا لمقدرة الكاتب على الإنشاء والزركشة اللغوية ، "بل إنه يستخدم اللغة وسيلة لتصوير إيقاع الحياة ونبضها ، لدى شرائح متباينة من المجتمع ، وهذا مظهر من مظاهر التغيير في لغة الشكل الأدبي ، استجابة وتناغما مع ما طرأ على البناء الاجتماعي من تغيير(٢)".

فاللغة بمثابة الوعاء الحضاري الذي يستوعب مظاهر التغيير الاجتماعي ، لهذا قام البديع بعملية تطويع للغة ، بحيث تتلاءم مع ما طرأ على المجتمع من تغيير ، وما جد عليه من ظواهر ، "ومن ثم يصبح (المبدع) وليس (اللغة) ، مناط الاقتدار الحقيقي على الجوس في كل مجال بكل مقال ، لأن القول هنا إمكانية مفتوحة ، ولأن المهجور أو المتروك يمتلك ثراءه الخاص الذي يلبي حاجة التعبير عن كل المضامين ، متى أحسن اقتناصه ، والإصاخة إلى نبضه ، وتوجيهه إلى مناطق فعله بحساسية معينة(٣)".

فكثيرا ما جاء أسلوبه غاية في الرقة والعذوبة والحلاوة ، "فالخمر أم النشوة ، ومصدر البهجة ، وموئل الأنس والمجون ، وإذن فلا مناص من أن يصفها البديع وصفا مفرحا مبهجا مؤنسا ماجنا ، وهو لا يصفها على لسان عيسى بن هشام ، أو على لسان

---

(١) المقامات هذا النوع الأدبي الجديد . مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة د. محمد أحمد العزب ص٢٣ .

(٢) نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام . د. أحمد الهواري ص١٤٢ .

(٣) المقامات هذا النوع الأدبي الجديد د. محمد أحمد العزب ص٢٣، ٢٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبي الفتح الإسكندري ، وإنما يختار لها شخصية مليحة ملاحة الخمر ، فاتنة فتنة السلاف ، وهي شخصية الساقية الساحرة التي تقول[1]" :

خمر كريقي في العذو ... بة واللذاذة والحـــلاوه

تذر الحليم وما عليـــ ... ـه لحلمه أدنى طلاوه

كأنما اعتصرها من خدي ، أجداد جدي ، وسربلوها من القار ، بمثل هجري وصدي ، وديعة الدهور ، وخبيئة جيب السرور ، ومازالت تتوارثها الأخيار ، ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أرج وشعاع ، ووهج لذّاع . . .[2]" .

وقد يتسم أسلوبه بالإغراب والغلظة والتعقيد الشديد ، كما في المقامات (الموصلية)[3] ، و(المارستانية)[4] ، و(الحمدانية)[5] ، و(الرصافية)[6] ، وتعد المقامة (النهيدية)[7] أكثر المقامات حشدا بألفاظ مهملة وحوشية غير مسموعة ، فعرض فيها كثيرا من محصوله اللغوي ، وكأنه يؤلف متنا في غريب الألفاظ .

فيصف طعاما يشهي به ضيوفه الجوعى ، فيقول : "فما رأيكم يا فتيان في درمك كأنها قطع السبائك ، تجرثم على سفرة حرتية ، بها ريح القرظ ، فيثب إليها منكم

---

(١) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية . د. مصطفى الشكعة ص٣٦٥ .

(٢) المقامة التاسعة والأربعون . أجداد جدي : كناية عن قدمها . سربلوها : كسوها . القار : الزفت . وديعة الدهر : معتقة . خبيئة ، جيب الصدور : أخفاها السرور لديه . أرجها : رائحتها . الوهج : الحرارة . لذاع محرق : محرق .

(٣) المقامة الواحدة والعشرون .

(٤) المقامة الرابعة والعشرون .

(٥) المقامة التاسعة والعشرون .

(٦) المقامة الثلاثون .

(٧) المقامة الرابعة والثلاثون .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتى رفيف ، لبق خفيف ، فيعجنه من غير أن يرجفه أو يخشفه ، فيزيله دون ملك ناعم، ثم يلته بالسمار أو المذق لتا غزيرا ، ثم يعمد إليه فيلويه ويدعه في ناحية الصيداء، حتى إذا تخ من غير أن يترز ، عمد إلى قصد الغضا ، فأشعل فيه النار ، فلما خيت ناره ، مهد لقرموصه ، ثم عمد إلى عجينه ففرطحه بعدما أنعم تلويثه ، ثم دحابه عليها ، ثم خمره، فلما قف وقب ، أحال عليه من الرضف ما يلتقي به الأواران .(١)".

والبديع عامد متعمد في استعماله هذا الأسلوب الذي أثقله ـ على غير عادته ـ بالغريب الحوشي ، إمعانا في السخرية والتهكم ، إذ استغل حالتهم من الحرمان والجوع ، وسرد لهم كما هائلا من الألفاظ التي لا يفهمون لها معنى ، ولا يعرفون لها دلالة ، واستطاع بمهارته في التصوير ، وبمقدرته على التشويق أن يستنطقهم بما يريد .

وكأنه يريد "أن يقول : إن اللغة كنز لما يزل مخبوءا على الرغم من تواتر القوالين والكتبة عليها في كل مرحلة وجيل ، وأن المتعارف من هذه اللغة والمجهول على السواء ، قادر على أسر العالم ، وتحريك هوامده ، بدليل هذا المعجم المهجور ، الذي وظفه هو فأنطق من خلاله الأشياء والأحياء ...(٢)".

والهمذاني كثيرا ما يحتفل بالبديع وأنواعه ، والزخرف وأنماطه ، "بوصفها أدوات فنية ، يصور بها رؤيته الجمالية للواقع ، بحيث يحقق مطلبه في النقد الاجتماعي ، وهذا التعامل الراقي مع المحسنات البديعية ، بما هي وعاء للتجربة الجمالية للفنان ، تطرح النظرة النقدية التي تدين استخدام الفنان للمحسنات

---

(١) المقامة السابقة . القرموص : الرماد الحار والحجر . فرطحه : عرضه . لوثه : ذر الدقيق تحت العجين . أنعم : صيره ناعما . دحا : بسط . قف : جف . قب : ارتفع . الرضف : الحجارة المحماة . وانظر بقية المعاني في (العوز والحرمان) .

(٢) المقامات هذا النوع الأدبي الجديد . د. محمد أحمد الغزب ص٢٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البديعية ، دون أن تضع في الاعتبار طبيعة العصر ومزاجه ، وأسلوبه ، ووضع الفنان داخل إطار تلك الصورة[١]".

ويطول بنا المسار لو رحنا نتعقب هذه الألوان التي لا تعدم الطرافة والقدرة على إثارة المتعة الذهنية ، وتبقى لها من ناحية أخرى دلالتها على التناقض في الحياة الاجتماعية ، بما فيها من سعادة ونحس ، وغنى وبؤس ، ولهو وجد . . .

ويعد الوصف والتصوير من أبرز سمات أسلوب الهمذاني ، فقد أجاد في رسم صور عديدة لأهل الكدية ، الذين يتلونون حسب الموقف ، فتارة يصور البطل في صورة "أعمى مكفوف ، في شمله صوف ، يدور كالخذروف ، متبرنسا بأطول منه ، معتمدا على عصا فيها جلاجل ، يخبط الأرض بها على إيقاع غنخ ، بلحن هزج ، وصوت شج ، من صدر حرج . . .[٢]".

وتارة يصوره وهو يدق على صدره بحجر ، وخلفه فرقة تردد نشيدا خاصا بهم ، كما في المقامة (الساسانية)[٣] ، وأحيانا يصوره في صورة "قراد يرقص قرده ، ويضحك من عنده" ، كما في المقامة (القردية)[٤] ، . . . وغير ذلك من الصور.

واعتمد البديع في رسمه للصورة على فن تجسيم العيوب ، أو (الكاريكاتور) ، مستثمرا قدرته الرفيعة على السخرية والتهكم ، بوصفها سلاحا من أسلحة النقد الاجتماعي ، كالصورة التي رسمها للريفي الساذج في المقامة (البغدادية)[٥] .

---

(١) نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام . د. أحمد الهواري ص١٦٤ .

(٢) المقامة السادسة عشرة .

(٣) المقامة التاسعة عشرة .

(٤) المقامة العشرون .

(٥) المقامة الثانية عشرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولفرط إحساس البديع بدقائق الأمور، استطاع أن يحشد كما هائلا من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال، والأشعار، بصورة عفوية لا افتعال فيها، بحيث أكسب السياق جمالا وجرسا وتأثيرا، وزاد المضمون الفكري تأكيدا، ليكون نتاجه مرآة صادقة لما حوله ومن حوله، وليكون شاهدا على ذلك أمام الأجيال القادمة، شهادة لا تقبل الجدل أو النكران.

ومن هنا فإن المقامات تعد من الآثار الهامة التي يستشف من خلالها كثير من ملامح وسمات الحياة الاجتماعية، وما تحفل به علاقات الناس من صراع، ولذلك فهي على جانب كبير من واقعية التصوير، وصدق التعبير عن الواقع، فهي تعبير عن معاناة إنسانية، أو تصوير لظواهر قائمة في حياة الناس.

وما من شك في أنها قد تناولت كثيرا من هذه النواحي والظواهر، التي كان يغص بها القرن الرابع الهجري، وصورها الهمذاني بما عرف من حدة الطبع، وفرط الإحساس، ونفاذ الإدراك، خاصة وأن فيه طبيعة الأديب الذي يحس دقائق المعاني والألفاظ، التي ربما تخفي على غيره.

ولذلك، كانت المقامات الهمذانية "أول صورة نثرية عبرت عن المجتمع بألوانه في هذه الأعصر، فلم يدانها فن نثري آخر من رسائل أو خطب في رسم هذه الصورة لحالة العصر، فكانت المقامة هي المرآة للحياة، نجد فيها تعقيدا لغويا، يعبر عن التعقيد السائد في المجتمع، ونجد تكلفا في الإكثار من المحسنات البديعية، تعبيرا عن روح التكلف، وعدم الاكتفاء بالمحدود في حياة السكان، ونجد السخرية اللاذعة من بين السطور، تعبيرا عن الألم الذي ساد طبقات المجتمع، من جراء الفوضى التي كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سائدة ، وكذلك نجد أن النفاق في حياة بطل المقامات ، يعبر عن نفاق المجتمع كله حاكمه ومحكومه (١)".

(١) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة . د. محمد رشدي حسن ص١٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

- الآداب العربية في العصر العباسي الثاني / د. محمد عبد المنعم خفاجي / مكتبة الكليات الأزهرية / القاهرة .
- أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة / د. محمد رشدي حسن / الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٤م) .
- الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي / محمود مصطفى / مكتبة النهضة المصرية / الطبعة الثانية (١٣٥٦/١٩٣٧م) .
- الإسلام والحضارة الإنسانية / د. محمد عبد المنعم خفاجي / بيروت (١٣٩٣/١٩٧٣م) .
- الأمالي / القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم) / دار الكتب العلمية / بيروت .
- بديع الزمان الهمذاني (رائد القصة العربية والمقالة الصحفية) / د. مصطفى الشكعة / عالم الكتاب / بيروت / الطبعة الأولى (١٤٠٣/١٩٨٣م) .
- بديع الزمان الهمذاني / مارون عبود / سلسلة نوابغ الفكر (٩) / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الرابعة .
- تاريخ آداب اللغة العربية / جورجي زيدان / دار الهلال / القاهرة / الطبعة الثانية .
- تاريخ الأدب العربي / أحمد حسن الزيات / مكتبة الأنجلو المصرية / الطبعة الرابعة عشرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- خزانة الأدب وغاية الأرب / ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر علي) / المطبعة الخيرية بجمالية مصر / الطبعة الأولى (١٣٠٤هـ).
- دراسات في الأدب المقارن / د. محمد عبد المنعم خفاجي / دار الطباعة المحمدية / الطبعة الأولى.
- رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني / مطبعة أمين هندية / الطبعة الرابعة (١٣٤٦/١٩٢٨م).
- زهر الآداب وثمر الألباب / الحصري القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم بن علي) / شرح الدكتور زكي مبارك / المطبعة الرحمانية بمصر / الطبعة الثانية.
- السرد في مقامات الهمذاني / أيمن بكر / الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٨م).
- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني / تأليف محمد محي الدين عبد الحميد / مكتبة محمد علي صبيح وأولاده / الطبعة الثانية (١٣٨١/١٩٦٢م).
- شرح مقامات الحريري / الشريشي (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن العبسي) مطبعة عبد الحميد حنفي / القاهرة / الطبعة الأولى (١٣٧٢/١٩٥٢م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا / القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية / المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر.
- ظهر الإسلام / أحمد أمين / مطبعة خلف / القاهرة (١٣٧٧/١٩٥٨م).
- العقد الفريد / ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه) / تحقيق محمد السعيد العريان / المكتبة التجارية (١٣٧٢/١٩٥٣م).
- الفن ومذاهبه في النثر العربي / د. شوقي ضيف / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الخامسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- في محيط النقد الأدبي / د. إبراهيم علي أبو الخشب / الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٥م).
- كتاب الإمتاع والمؤانسة / أبو حيان التوحيدي / تصحيح وضبط وشرح أحمد أمين وأحمد الزين / مكتبة الحياة / بيروت.
- مجلة الرسالة / المجلد الأول، العدد (٨٠)، السنة الثالثة، (١٩٨) لسنة (١٩٣٧م).
- مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق / مقال: المقامات الهمذانية دراسة ونقدا / د. فرج السيد راغب مندور / العدد العاشر (١٤١٠/١٩٩٠م).
- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة / مقال: المقامات هذا النوع الأدبي / د/محمد أحمد العزب / العدد السادس عشر /ج١/ (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- معجم الأدباء / ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) مراجعة وزارة المعارف العمومية / مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة.
- مع الحريري في مقاماته / د. فوزي جعفر / دار الشئون الثقافية العامة / العراق / الموسوعة الصغيرة / العدد (١٩٠).
- مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني / شرح الشيخ محمد عبده المصري / المطبعة الكاثوليكية للأدباء اليسوعيين / الطبعة الثانية.
- مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني / شرح محمد محمود الرافعي / المكتبة المحمودية محمود علي صبيح / الطبعة الثانية.
- المقامة / د. شوقي ضيف / فنون الأدب العربي (الفن القصصي) (٩) / دار المعارف بمصر / الطبعة الثانية (١٩٦٤م).
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري / د. زكي مبارك / طبعة دار الكتب المصرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام / د. أحمد الهواري / عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية / القاهرة (١٩٩٣م).
- النموذج الإنساني في أدب المقامة / د. علي عبد المنعم عبد الحميد / الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) / الطبعة الأولى (١٩٩٤م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد / مكتبة النهضة المصرية (١٩٤٨م).
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد / مطبعة حجازي / القاهرة.

تمد بحمد الله ؛؛؛

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner